من مشاهد يوم القيامة يوم القيامة

إعداد الدكتورة

منيرة محمد محمد علي العيسوي

مدرس التفسير وعلوم القرآن الكريم
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالزقازيق

من مشاهد يوم القيامة في القرآن الكريم

منيرة محمد محمد علي العيسوي.

قسم التفسير وعلوم القرآن – كلية الدراسات الإسلامية و العربية بنات الزقازيق – جامعة الأزهر – مصر.

البريد الإلكتروني: moniraelesawi.67@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف البحث إلي بيان بعض من مشاهد يوم القيامة وما فيها من أهوال فوق طاقة البشر وما تلاقيه المخلوقات جميعها ومظاهر الكون التي تتغير عن طبيعتها والمشاهد الكونية وما يصاحبها من اضطراب واختلاف ويشمل ذلك الظواهر الكونية العلوية كالسماء والشمس والقمر والنجوم والكواكب والظواهر الكونية السفلية كالأرض والجبال والبحار وما يعتريها من انقلاب في أحوالها جميعاً. وكذلك أحوال الناس في ذلك اليوم وذهولهم عن أنفسهم وفقدانهم لما يملكون وانقطاع الصلة بينهم وفرارهم من بعضهم البعض ولكن المؤمنون في ذلك اليوم تبيض وجوههم وتشرق وتقرب منزلتهم من ربهم ، والكافرون تصيبهم الذلة والخزي وسواد الوجوه وتنكيس الرؤوس ويحشرون على وجوههم. والجميع ينتظرون الشفاعة للنجاة من هول الموقف في ذلك اليوم .

الكلمات المفتاحية: مشاهد، يوم القيامة، النجوم والكواكب، الجبال، الأجداث، أرض المحشر، نور المؤمنين، هيئة الكافرين .

From the Scenes of the Day of Resurrection In the Holy Quran

Munira Mohammed Mohammed Ali AL-Aesawi
Interpretation and Qur'an sciences Department, Zagazig Faculty of Islamic and Arab Studies for girls, Al-Azhar University, Egypt
E-mail: moniraelesawi.67@azhar.edu.eg

Abstract:

The research aims to demonstrate some of the scenes of the day of Resurrection and what is inside such as the horrors that are beyond the power of humans in addition to what faces all the creatures from the universal phenomena of which nature changes. These changes are accompanied with disturbance and confusion which include the upper cosmic phenomena such as the sky, the sun, the moon, the stars, and the planets. Also included are the lower cosmic phenomena such as the earth, the mountains, the seas and what is happening to them from the upheaval in all their conditions. Similarly included are the disturbance in peoples' conditions, in this day, such as their dizziness, their loss of what they possess and the disconnection between them and their escaping from each other. On the other hand, the believers' faces will illuminate and shine in such day and their

status will be close to their lord. In contrast, the unbelievers will be afflicted by slip, disgrace, darkening of the faces and lowering of the heads and their gathering on their faces. Therefore, everyone is waiting for the intercession to escape from the horror of the situation in this day.

Key words: Scenes, Day of Resurrection, Stars, Planets, Graves, Land of the Congregation, Believers ' Light, The Unbelievers' shape.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي سيد المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد النبي الأمى الكريم وعلي آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

الحمد لله علي نعمة الإسلام نسأله سبحانه الثبات في الدنيا والنجاة في الآخرة من أهوال يوم القيامة – وبعد فإن يوم القيامة ذا أهوال عظيمة فهو عند الله بمقدار ألف سنة وفيه من المواقف ما يدعو الإنسان المؤمن أن يُعدَّ له العُدَّة ويزداد إيمانه بمعرفته لربه ولقدرته ويسارع المفرِّط بالرجوع والتوبة طمعاً في فضله سبحانه ورحمته. ومشاهد ذلك اليوم كثيرة وسأتناول بعضاً من مشاهد ذلك اليوم العصيب وأسأله سبحانه التوفيق والسداد والقبول إنه سبحانه نعم المولي ونعم النصير .

سبب اختياري لهذا الموضوع : إغراق الناس في الغفلة وبُعد الكثير منهم عما يلاقيه الإنسان يوم القيامة من الأهوال والصعاب التي يتعرض لها أمام هذه الأهوال التي قلَّ من ينجو منها .

منهجى في البحث : وقد اخترت المنهج الإقرائى والتحليلي لبعض آيات القرآن الكريم التي تتعلق بهذا الموضوع .

وقد اشتمل هذا الموضوع علي بعض مشاهد يوم القيامة ومنها المشاهد الكونية وتشتمل علي مباحث :

المبحث الأول : المشاهد الكونية العلوية وفيه مطالب :

المطلب الأول : مشهد السماء .

المطلب الثاني : مشهد الشمس والقمر .

المطلب الثالث : مشهد النجوم والكواكب .

المبحث الثاني : المشاهد الكونية السفلية ويشتمل علي عدة مطالب :

المطلب الأول : مشهد الأرض .

المطلب الثاني : مشهد الجبال .

الطلب الثالـث : مشهد البحار .

المبحث الثالث : مشاهد الناس يوم القيامة وفيه مطالب :

المطلب الأول : خروج الناس من الأجداث .

المطلب الثاني : ذهول الناس عن أنفسهم وفقدانهم لما يملكون وانقطاع الصلة بينهم وفرارهم من بعضهم البعض .

المطلب الثالث : هيئة إتيانهم إلي أرض المحشر للحساب وظهور نتائج أعمالهم .

المبحث الرابع : أحوال المؤمنين يوم القيامة وفيه مطالب :

المطلب الأول : بياض وجوههم وإشراقها .

المطلب الثاني : مراتب المؤمنين في القرب من الله سبحانه يوم القيامة .

المطلب الثالث : المؤمنون يوم القيامة يحيطهم النور بين أيديهم وبأيمانهم .

المطلب الرابع : الشهداء يوم القيامة لهم نصيب من النور .

المبحث الخامس : هيئة الكافرين في ذلك اليوم وفيه مطالب :

المطلب الأول : الذلة وسواد الوجوه .

المطلب الثاني : الخزي وتنكيس الرؤس .

المطلب الثالث : ضلال الطريق والحشر علي الوجوه .

المبحث السادس : الشفاعة العظمى :

الخاتمة : وتشتمل علي أهم نتائج البحث والتوصيات .

التمهيـــد

تعريف يوم القيامــة :

جاء ذكر القيامة بمعني قيام الساعة لقوله تعالي ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ** ﴾[١] .

وقد عرف الراغب الأصفهاني في مفرداته القيامة فقال : [والقيامة أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دفعة واحدة أُدخل فيها الهاء تنبيها علي وقوعها دفعة][٢] .

وقد جاء التعبير عن القيامة بالساعة وذلك لسرعة وقوعها وقال الفيروز ابادى : ويعبر بالساعة عن القيامة تشبيها بذلك لسرعة حسابه، كما قال : ﴿ **وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ** ﴾[٣].

أو لما نبه عليه بقوله : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ** ﴾[٤]،**فالأولي :** القيامة ، **والثانية :** الوقت اليسير. وقيل : الساعة التي هي القيامة ثلاث ساعات : الكبرى وهي البعث للحساب، ومنه الحديث : " **لا تقوم الساعة حتي يظهر الفُحش، وحتي يُعبد الدرهم والدينار** "[٥] .

---

(١) سورة الروم – الآية (١٢) .

(٢) المفردات في غريب القرآن - أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب (٥٠٢هـ)، ص ٤١٨ .

– تحقيق وضبط محمد خليل - عيتاني - دار المعرفة بيروت - لبنان - الطبعة الأولي ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .

(٣) سورة الأنعام - الآية (٦٢) .

(٤) سورة الروم - الآية (٥٥) .

(٥) المسند - للإمام أحمد بن حنبل - الحديث موجود في موضعين - الأول ٧٤/٦ رقم الحديث ٦٥١٤، والثاني ٣٥٠/٦ رقم الحديث ٦٨٧٢ - وكلاهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص بلفظ

وذكر أموراً لم تحدث في زمانه ولا بعده والساعة الوسطي، وهي موت أهل القرن الواحد، وذلك نحو ما روي (أنه رأى صلي الله عليه وسلم عبد الله بن أُنيس[1] فقال : إن يطل عمر هذا الغلام لم يمت حتي تقوم الساعة "[2] فقيل إنه كان آخر من مات من الصحابة، رضي الله عنهم .

(إن الله يبغض الفحشاء والتفحش والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتي يخون الأمين ويؤتمن الخائن حتي يظهر الفحش والتفحش وقطع الأرحام) وعدد أشياء أخرى غيرها في الحديث، ولم يذكر فيه حتي يعبد الدرهم والدينار فتلك الجملة لم أقف عليها - إشراف الدكتور سمير طه المجذوب، وعلي حسن الطويل، وسمير حسين غاوي - المكتبة الإسلامية - بيروت - دمشق - عمان - الطبعة الأولى - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م .

(١) عبدالله بن أنيس الجهني الأنصارى كان مهاجرياً أنصارياً عقبياً شهد بدراً وأحداً وما بعدهما روى عنه أولاده عطيه وعمرو وضمرة وعبدالله وجابر بن عبدالله وتوفي سنة ٧٤هـ .
- أسد الغابة - لأبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزرى عز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ٧٥/٣ طبعة دار الفكر - بيروت - ١٤٠٩هـ.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبى – المتوفى سنة ٧٤٨ هـ - ٤١٧/٢ .
- تحقيق- الدكتور - بشار عواد معروف - طبعة دار الغرب الإسلامى - الأولى - ٢٠٠٣ م .
- الإصابة في تمييز الصحابة - أبى الفضل أحمد بن على بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلانى متوفى سنة ٨٥٢ هـ - ١٣/٤. تحقيق عادل أحمد عبدالموجود- دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ .

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام أبى زكريا يحيي بن شرف النووى كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب قرب الساعة - ٧٣/١٨ - حديث رقم ٢٩٥٢ ، ٢٩٥٣ - ولفظه عن عائشة قالت : كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألأوه عن الساع : متى الساعة ؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال : إن يعشي هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم .
- وعن أنس أن رجلا سأل رسول الله ﷺ متي تقوم الساعة وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد فقال رسول الله ﷺ : " إن يعش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة " - طبعة مكتبة الصفا - الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ . وقد قال ابن حجر : وما ذكره عن عبدالله بن أنيس لم أقف عليه ولا هو آخر من مات من الصحابة هرماً .
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى - لأحمد بن على بن حجر أبى الفضل العسقلانى – ٣٦٤/١١ - رتب كتبه وأبوابه محمد فؤاد عبدالباقي، طبعة دار المعرفة - بيروت - ١٣٧٩ هـ .

والساعة الصغرى، وهى موت الإنسان، فساعة كل إنسان موته، وهى المشار إليها بقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا ﴾[1] ومعلوم أن هذه الحسرة تنال الإنسان عند موته][2] .

(١) سورة الأنعام - الآية (٣١) .
(٢) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى (المتوفى ٨١٧هـ) - ٢٧٦/٣ - ٢٧٧ - طبعة وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامى - الطبعة الثانية - رجب ١٤٠٦ هـ - مارس ١٩٨٦ م .

المبحث الأول

المشاهــد الكونيـــة العلويـــــة

المطلب الأول

مشهـد السمــاء

قال الله تعالي : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾[1] .

[يخبر الله تعالي عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب علي السواء وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام وسمكها خمسمائة عام وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة كما قال تعالي : **﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾**[2]]**[3]** .

ومع ارتفاع هذه السماوات السبع وبعد ما بينهما وبين بعضها وجمال شكلها وروعة إبداعها يأتي عليها يوم القيامة وقد زالت من أماكنها ودمرت وانتهت فسبحان الخالق العظيم .

---

(١) سورة الرعد - الآية (٢) .
(٢) سورة الطلاق - الآية (١٢) .
(٣) تفسير القرآن العظيم - للإمام إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع القرشي البصروى ثم الدمشقي أبو الفداء عماد الدين ابن كثير - المولود ٧٠١ هـ - ١٣٠٢ م - المتوفى ٧٧٤ هـ - ١٣٧٣ م - ١٩٤/٤ - حقق أصوله. ووثق نصوصه وخرج أحاديثه وكتب مقدماته وراجعه / طه عبدالرءوف سعد - طبعة جديدة مضبوطة محققة معتني بإخراجها مقدم لها - أصح الطبعات وأكثرها شمولا - الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م - مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع - المنصورة .

قال تعالي : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْرًا ﴾[١] وهو وصف لحال السماء يوم القيامة ولحركتها : [عن ابن عباس : هو تشققها، وقال الضحاك : استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض][٢] .

قال تعالي : ﴿ إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾[٣] .

(أى استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الإنشقاق وذلك يوم القيامة وحق لها أن تطيع أمره لأنه العظيم الذي لا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شئ وذل له كل شئ)[٤] .

وقال سبحانه : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[٥] [أى تذوب كما يذوب الدردي[٦] والفضة في السبك وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم][٧].

ثم يأتي بعد ذلك الضعف والوهن الذي يصيب السماء كما يصيب جميع المخلوقات تجاه قوة الخالق العظيم .

قال تعالي : ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾[٨] .

[أى انشقت السماء لنزول الملائكة فهي يومئذ مسترخية ساقطة

---

(١) سورة الطور الآية (٩) .
(٢) المرجع السابق - ٢٧٧/٧ باختصار .
(٣) سورة الانشقاق - الآيتان ١ ، ٢ .
(٤) المرجع السابق - ٢٠٢/٨ .
(٥) سورة الرحمن - الآية (٣٧) .
(٦) دردى الزيت وغيره ما يبقي فى أسفه، وأصله ما يركد فى أسفل كل مائع كالأشربة والأدهان.
- لسان العرب - محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفي : ٧١١ هـ) - ١٦٦/٣ بختصار، دار صادر - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ .
(٧) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ٣١٧/٧ .
(٨) سورة الحاقة - الآية - ١٦ .

القوة بعد ما كانت محكمة شديدة][1] .

وتتشقق السماء ويصبح فيها فتحات وأبواب كما قال سبحانه وتعالي: ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾[2] .

[أى طرقاً ومسالك لنزول الملائكة][3] .

وقال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴾[4].

[يخبر تعالي عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار ونزول ملائكة السماوات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ثم يجئ الرب تبارك وتعالي وفصل القضاء][5] .

وهكذا تنقاد السماء لخالقها مستجيبة لأوامره كما تنقاد جميع المخلوقات في ذلك اليوم العظيم .

ثم ينتهي أمر السماء بطيها كما قال سبحانه ﴿ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[6] .

[والمراد بذلك الفناء والذهاب][7] .

---

(١) التفسير الكبير - أو مفاتيح الغيب - للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري - الرازي الشافعي - ٥٤٤ - ٦٠٤ هـ - ٩٩/٣٠ - قدَّم له / هاني الحاج - حققه وعلق عليه وخرَّج أحاديثه / عماد زكي البارودي - المكتبة التوفيقية - القاهرة بدون بيان عن الطبعة .

(٢) سورة النبأ - الآية (١٩) .

(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ١٧٢/٨ .

(٤) سورة الفرقان - الآية (٢٥) .

(٥) المرجع السابق - ٦٨/٦ .

(٦) سورة الزمر - الآية (٦٧) .

(٧) الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي - لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي - ٢٢٢/١٥ - تقديم/ هاني الحاج - حققه وخرَّج أحاديثه / عماد زكي البارودي، خيري سعيد - المكتبة التوفيقية - القاهرة - بدون بيان عن الطبعة .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ ﴾[1] .

[فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشئ وقيل تطوى كما قال تعالي : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾[2] فكان المعني : قلعت فطويت][3].

(١) سورة التكوير - الآية (١١) .
(٢) سورة الأنبياء - الآية (١٠٤) .
(٣) المرجع السابق - ١٧٦/١٩ .

المطلب الثاني

مشهد الشمس والقمر

الشمس والقمر من الآيات الكونية التي يصيبها ما أصاب غيرها من مخلوقات الله من الزوال والدمار إيذاناً بالنهاية .

قال تعالي : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[1] .

[يعني أظلمت واضمحلت وذهبت وذهب ضوؤها، والتكوير جمع الشئ بعضه علي بعض ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلي بعض فمعني قوله تعالي: ﴿ كُوِّرَتْ ﴾ جمع بعضها إلي بعض ثم لفت فرمي بها وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها][2] .

حينئذ تصاب الأبصار بالحيرة والفزع والخوف من هذه الأحداث العظيمة التي تجعل هذه الآيات الكونية في حال من الدمار والضعف بعد القوة والمكانة الكبيرة التي كانت عليها في الدنيا .

قال تعالي : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾[3] .

[والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى ذهب ضوءه والخسوف في الدنيا إلي انجلاء، بخلاف الآخرة، فإنه لا يعود ضوءه ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى جمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه .

---

(١) سورة التكوير - الآية (١) .
(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ١٨٥/٨ - ١٨٦ باختصار .
(٣) سورة القيامة - الآيات ٧ - ٩ .

وقد يجمعان في نار جهنم، لأنهما قد عُبدا من دون الله ولا تكون النار عذاباً لهما لأنهما جماد، وإنما يفعل ذلك بهما زيادة في تبكيت الكافرين وحسرتهم. وقيل : هذا الجمع أنهما يجتمعان ولا يفترقان، ويقربان من الناس، فيلحقهم العرق لشدة الحر، فكأن المعني يجمع حرهما عليهم. وقيل : يجمع الشمس والقمر، فلا يكون ثَمَّ تعاقب ليل ولا نهار][1] .

فالشمس والقمر مثل باقي الكائنات إلي زوال ودمار يوم القيامة بعد أن كانا سبباً من أسباب الحياة .

(١) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ١٥٥/٨، الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ٧٢/١٩-٧٣ باختصار وتصرف .

المطلب الثالث

مشهـد النجـوم والكواكــب

النجوم والكواكب من مخلوقات الله سبحانه التي قضي عليها بالهلاك إيذانا بمجئ يوم القيامة .

فبعد أن كانت النجوم مصدراً للنور وزينة للسماء وعلامات يهتدي بها وكانت في بعض حالاتها رجوماً للشياطين، وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[1] وقوله سبحانه:﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾[2] .

بعد أن كانت من أعظم المخلوقات تأثيراً في الدنيا أصابها ما أصاب غيرها من الدمار والهلاك.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المشهد بقوله سبحانه وتعالي: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾[3] وقال سبحانه:﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾[4] .

فتتساقط كما أخبر سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾[5] .

فياله من مشهد هائل حيث تتساقط النجوم علي كثرة أعدادها ويذهب ضوءها .

فقوله تعالي : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ : [أى تهافتت وتناثرت، وتساقطت، وذلك أنها قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل

(١) سورة النحل - الآية (١٦) .
(٢) سورة الملك - الآية (٥) .
(٣) سورة المرسلات - الآية (٨) .
(٤) سورة التكوير - الآية (٢) .
(٥) سورة الانفطار- الآية (٢) .

بأيدي ملائكة من نور، فإذا جاءت النفخة الأولي مات من في الأرض ومن في السماوات، فتناثرت تلك الكواكب وتساقطت السلاسل من أيدي الملائكة، لأنه مات من كان يمسكها .

ويحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها .

وسميت النجوم نجوماً لظهورها في السماء بضوئها][1] .

(١) الجامع لأحكام القرآن - القرطبى - ١٧٠/١٩ - ١٧١ باختصار وتصرف .

المبحث الثاني

المشاهد الكونيــة السفليــة

من المشاهد الكونية التي تسبب الرعب لأبصار العباد والذهول لعقولهم ما يحصل من دمار وزوال للأرض والجبال والبحار وما يصاحب ذلك من اضطراب وحركة شديدة مروعة ومفزعة .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المشهد المرعب بقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1].

المطلب الأول

مشهــد الأرض

بعد أن كانت الأرض مستقرة ينعم كل من عاش علي ظهرها من المخلوقات بالحياة كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2] .

أصابها الدمار هي وما عليها من المخلوقات قال تعالي: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾[3] وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ ﴾[4] .

---

(١) سورة الحج - الآيتان (١ ، ٢) .
(٢) سورة الرعد - الآية (٣) .
(٣) سورة الواقعة - الآية (٤) .
(٤) سورة المزمل - الآية (١٤) .

فتتحرك الأرض وترج وترتجف [قال المفسرون : ترتج كما يرتج الصبي في المهد حتي ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شئ عليها من الجبال وغيرها. وعن ابن عباس : الرجة الحركة الشديدة يسمع لها صوت][1] .

ثم تتزلزل كما قال سبحانه : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾[2] .

[أى تحركت من أسفلها وألقت ما فيها من الموتي، (وقال الإنسان مالها) أى استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة وهو مستقر علي ظهرها أى تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالي ما قد أعده لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه ثم ألقت ما في بطنها من الأموات الأولين والآخرين وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار][3] .

ثم تدك الأرض وذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾[4] .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾[5] .

وتصبح ممهدة مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض كما قال تعالي : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾[6] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ١٤٩/١٧ .
(٢) سورة الزلزلة - الآيات (١– ٣) .
(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ٢٦٥/٨ باختصار .
(٤) سورة الحاقة - الآية (١٤) .
(٥) سورة الفجر - الآية (٢١) .
(٦) سورة طه الآيتان (١٠٦ ، ١٠٧) .

[أى بساطاً واحداً والقاع هو المستوي من الأرض والصفصف تأكيد لمعني ذلك][1] .

ثم يبدل الله الأض كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[2] .

[واختلف في كيفية تبديل الأرض، فقال كثير من الناس : إن تبديل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدَّ أرضها، عن عائشة رضي الله عنها قال : [سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : " ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ فأين يكون الناس يومئذ ؟ يا رسول الله ! فقال " علي الصراط "][3].

وقال ابن مسعود : إنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمل عليها خطيئة.

وقيل تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه، وقيل : الأرض يوم القيامة كلها نار والجنة من ورائها تري كواعبها وأكوابها ويلجم الناس العرق ويبلغ منهم العرق ولم يبلغوا الحساب .

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ﴾ أى خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ الذي قهر كل شئ وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب][4] .

---

(١) المرجع السابق - ١٩٤/٥ .
(٢) سورة إبراهيم - الآية (٤٨) .
(٣) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة ١١٢/١٧- حديث ٢٧٩١ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن - القرطبى - ٣١١/٩ - ٣١٢ ، وتفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ٢٤٧/٤ - باختصار وتصرف .

ومما يدل علي عظمته سبحانه وقدرته وهيمنته علي جميع خلقه قوله سبحانه وتعالي : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1].

[والمعني وما عظموه حق عظمته إذا عبدوا معه غيره وهو خالق الأشياء ومالكها. ثم أخبر عن قدرته وعظمته فقال: ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ثم نزه نفسه أن يكون ذلك بجارحة فقال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

[قال عبدالله جاء رجلا إلي النبي ﷺ من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم إن الله يمسك السماوات علي إصبع، والأرضين علي إصبع، والشجر والثرى علي إصبع، والخلائق علي إصبع ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، فرأيت النبي ﷺ ضحك حتي بدت نواجذه ثم قرأ :﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾[2] والأرض جميعا ذاهبة فانية يوم القيامة][3] وذلك بقدرته وعظمته ملكه سبحانه .

هذه الأحوال الهائلة تمر بها الأرض يوم القيامة حتي تتبدل أرضا غير الأرض التي كانت يعيش عليها جميع المخلوقات إلي أن يأتي الحساب وتنصرف الجميع كل حسب عمله إما إلي الجنة وإما إلي النار .

---

(١) سورة الزمر- الآية (٦٧) .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلانى - ٧٧٣ - ٨٥٢ هـ - كتاب التوحيد - باب قول الله تعالي (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) - ١٥ /٣٤٨ - ٣٤٩ حيث رقم ٧٤١٥ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م .

(٣) الجامع لأحكام القرآن - القرطبى - ٢٢١/١٥ - ٢٢٢ - باختصار وتصرف .

المطلب الثاني

مشهـــد الجبـــال

بعد أن تتزلزل الأرض تزال الجبال الرواسي التي كانت بمثابة أوتاد للأرض وتتحرك عن أماكنها وتصبح الأرض مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض مكشوفة للرائي. كما قال تعالي : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾[1] وقال سبحانه:﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[2] .

وقال سبحانه:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾[3] .

[أى هل تبقي يوم القيامة أو تزول ؟ ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ أى يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أى الأرض ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أى بساطا واحداً لا تري في الأرض يومئذ وادياً ولا مكانا منخفضا ولا مرتفعاً)[4] .

وقال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[5]

[المعني : واذكر يوم نسير الجيال، أى نزيلها من أماكنها من علي وجه الأض ونسيرها كما نسير السحاب ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ ظاهرة وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان أى قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها وهدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة][6] .

---

(١) سورة النازعات - الآية (٣٢) .
(٢) سورة النبأ - الآيتان (٦ ، ٧) .
(٣) سورة طه - الآيات (١٠٥ ، ١٠٧) .
(٤) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ١٩٤/٥ باختصار .
(٥) سورة الكهف - الآية (٤٧) .
(٦) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ١٠ - ٣٤٤ - ٣٤٥ باختصار .

وقال سبحانه : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[١] .

[أى ترها كأنها ثابتة باقية علي ما كانت عليه وهي تمر مر السحاب أى تزول عن أماكنها][٢] .

[فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير وكذلك كل شئ عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر، لكثرته وبعد ما بين أطرافه، وهو في حسبان الناظر كالواقف وهو يسير][٣] .

ومن الأحوال التي تمر بها الجبال أيضاً في هذا اليوم العصيب ما ذكره سبحانه في قوله : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾[٤] [أى فتتت فتاً][٥].

وقله : ﴿ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾[٦] .

[أى تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقي منها شئ إلا ذهب حتي تصير الأرض قاعاً صفصفا لا تري فيها عوجاً أى لا وادياً ولا أمتاً أى رابية ومعناه لا شئ ينخفض ولا شئ يرتفع][٧] .

ثم يذكر سبحانه حالاً آخر من أحوال الجبال يوم القيامة وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾[٨] .

---

(١) سورة النمل - الآية (٨٨) .
(٢) تفسير لقرآن العظيم - ابن كثير - ١٣٩/٦ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ١٩٥/١٣ .
(٤) سورة الواقعة - الآية (٥) .
(٥) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٣٢٦/٧ .
(٦) سور المزمل - الآية (١٤) .
(٧) المرجع السابق - ١٤٣/٨ .
(٨) سورة المعارج - الآية (٩) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾[1] .

[يعني قد صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق][2] .

هذه هي أحوال الجبال يوم القيامة فبعد القوة والصلابة والضخامة والكثرة وبعد أن كانت أوتاداً تمسك الأرض من جميع جوانبها ذهبت معالمها وأصبحت لا أثر لها كالسراب الذي لا وجود له .

قال تعالي : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[3] .

[أى يخيل إلي الناظر أنها شئ وليست بشئ وبعد هذا تذهب بالكلية فلا عين ولا أثر][4] .

(١) سورة القارعة - الآية (٥) .
(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ٢٦٩/٨ .
(٣) سورة النبأ - الآية (٢٠) .
(٤) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ١٧٣/٨ .

المطلب الثالث

مشهـد البحــار

من المشاهد المروعة التي تحدث يوم القيامة تغير حال البحار عما كانت عليه مما يؤدي إلي هلاكها كما قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾[١] .

[وفيه وجوه : أحدها أن أصل الكلمة من سجرت التنور إذا أوقدتها، والشئ إذا أوقد فيه نشف ما فيه من الرطوبة، فحينئذ لا يبقي في البحار شئ من المياه ألبتة.

وثانيها : أن يكون " **سُجِّرَتْ** " بمعني " **فُجِّرَتْ** " وذلك لأن بين البحار حاجزاً علي ما قاله : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ ﴿الرحمن/١٩ ،٢٠﴾ فإذا رفع الله ذلك الحاجز فاض البعض في البعض، وصارت البحار بحراً واحداً][٢] .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾[٣] .

[وفيه وجوه أحدها : أنه ينفذ بعض في البعض بارتفاع الحاجز الذي جعله الله برزخاً وحينئذ يصير الكل بحراً واحداً، وإنما يرتفع ذلك الحاجز لتزلزل الرض وتصدعها .

وثانيها : أن مياه البحار الآن راكدة مجتمعة، فإذا فجرت تفرقت وذهب ماؤها .

وثالثها : فجرت أى يبست][٤] .

---

(١) سورة التكوير - الآية (٦) .
(٢) مفاتيح الغيب - الرازى - ٦٩/٣١ باختصار .
(٣) سورة الانفطار - الآية (٣) .
(٤) مفاتيح الغيب - الرازى - ٧٧/٣١ .

المبحث الثالث

مشاهـد الناس يوم القيامـة

المطلب الأول

خـروج الناس مـن الأجـداث[١]

هذا حال خروج الناس من القبور بعد النفخة التى تخرجها أحياء ينظرون في ذهول وفزع من هول ما يرون .

قال الله تعالي : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[٢] .

[هذه النفخة هي الثانية وهي نفخة الصعق وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم يقبض أرواح الباقين حتي يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ثم يحيي أول من يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور أخري وهي النفخة الثالثة نفخة البعث ﴿ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أى فإذا الأموات من أهل الأرض والسماء أحياء بعثوا من قبورهم وأعيدت إليهم أبدانهم وأرواحهم فقاموا ينظرون ماذا يؤمرون .

وقيل : قيام علي أرجلهم ينظرون إلي البعث الذي وعدوا به .

وقيل : هذا النظر بمعني الانتظار أى ينتظرون ما يفعل بهم][٣] .

---

(١) الأجداث : (الجدث : القبر)- المعجم الوجيز - ص ٩٤- مجمع اللغة العربية - طبعة ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

(٢) سورة الزمر - الآية (٦٨) .

(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ٧٤/٧ - ٧٥، والجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ٢٢٥/١٥ باختصار وتصرف .

وقال تعالي : ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[٢] .

[وذلك أن الله عز وجل ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالي إسرافيل فينفخ في الصور وقد أودعت الأرواح في ثقب في الصور فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلي الجسد الذي كانت تعمره فترجع كل روح إلي جسدها فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلي موقف الحساب سراعاً مبادرين إلي أمر الله عز وجل][٣] .

وقد جاء وصف حال الخروج من القبور في عدة مواضع في القرآن الكريم كما في قوله تعالي : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾[٤] .

وقوله سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾[٥] .

فحينئذ يخرج الموتي من القبور أحياء ويواجهون ما يحدث في ذلك اليوم من أهوال.

---

(١) سورة ق - الآية (٤٢) .
(٢) سورة ق - الآية (٤٤) .
(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ٢٦٥/٧ وينظر صحيح مسلم بشرح النووى- كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسي وقتله إياه، وذهاب أهل الخير والإيمان، وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان، والنفخ في الصور، وبعث من في القبور – ٦٠/١٨-٦١ - حديث رقم ٢٩٤٠ .
(٤) سورة الانفطار - الآية (٤) .
(٥) سورة العاديات - الآية (٧) .

وقد ذكر سبحانه الحال التي يكون عليها الناس في ذلك اليوم في قوله سبحانه : ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾[1] .

فعند خروجهم من القبور وسريان أرواحهم في أجسادهم ورؤيتهم لأهوال ذلك اليوم العظيم ينتابهم الفزع والرعب فلا يدركون أين يذهبون فيصبحون كما وصفهم القرآن الكريم كالفراش المتفرق المنتشر يموج بعضهم في بعض غير مهتدين لما سيلقونه من حساب من ربهم مستسلمين ومنتظرين ماذا سيكون مصيرهم .

وقد فسر هذا الفراش بأنه : [الطير الذى يتساقط في النار والسراج. وقال في موضع آخر : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ ﴿القمر/٧﴾ فأول حالهم كالفراش لا وجه له، يتحير في كل وجه، ثم يكونون كالجراد، لأن لها وجها تقصده. والمبثوث: المتفرق المنتشر .

وقال ابن عباس والفراء: ﴿ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ كغوغاء الجراد، يركب بعضها بعضاً، كذلك الناس، يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا][2] .

(١) سورة القارعة - الآيات (١-٤) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ١٢٩/٢٠-١٣٠ باختصار .

المطلب الثاني

ذهول الناس عن أنفسهم وفقدانهم لما يملكون وانقطاع الصلة بينهم وفرارهم من بعضهم البعض

عندما تبدأ أهوال ذلك اليوم العظيم تتلاحق بسرعة شديدة فتتزلزل الأرض وتتصدع الجبال وغيرها من الأحداث التي تذهل الناس عن أنفسهم وتوجل قلوبهم وتتوقف عقولهم عن استيعاب ما يحدث وقد عبر سبحانه عن ذلك المشهد الرهيب بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1] .

فيذكر الله سبحانه عباده بقوله ومخافته والسير علي المنهج القويم حيث لا نجاة ولا ملجأ في ذلك اليوم إلا إليه سبحانه فمن هول ما يرون سيصبح حالهم كحال السكاري الذين ذهبت عقولهم وإن لم يكونوا علي الحقيقة كذلك ولكن من شدة الهول والفزع أصبحوا علي تلك الحال .

فالأم مع رضيعها أشد ما يكون التصاقاً وارتباطا ببعضهما ستذهل عنه وتتركه من هول ما تري، والحامل تسقط حملها من شدة الفزع .

فكما تتزلزل الأرض في ذلك اليوم فإن أحداثه أيضا تزلزل القلوب والعقول .

[وصف الله الزلزلة بالعظيم ولا عظيم مما عظمه الله تعالي ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا ﴾ أى الزلزلة لأن مشاهدتها توجب الخوف الشديد. وذقد ذكر سبحانه من أهوال ذلك اليوم أموراً ثلاثة **أحدها :**

(١) سورة الحج - الآيتان (١ ، ٢) .

- ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة، فإذا فوجئت بذلك الهول وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة .

- **وثانيها :** قوله ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ والمعني أنها تسقط ولدها لتمام أو لغير تمام من هول ذلك اليوم وهذا يدل علي أن هذه الزلزلة إنما تكون قبل البعث، ويحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل علي جهة المثل كما تأول قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ ﴿المزمل/١٧﴾ .

- **وثالثها :** قوله ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ والمعني وتراهم سكاري علي التشبيه ﴿ وَمَا هُم بِسُكَارَى ﴾ علي التحقيق، ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالي الذي هو أذهب عقولهم وطير تمييزهم، وقال ابن عباس والحسن : وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكاري من الشراب][1] .

وهذه الأهوال تحدث يوم القيامة بعد قيام الناس من القبور والأدلة المؤيدة لهذا الرأي كثيرة منها ما رواه الترمذي عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لما نزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلي قوله: ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال: " أتدرون أيَّ يوم ذلك "؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال " ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار فقال: يارب وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلي النار وواحد إلي الجنة " فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ : " قاربوا وسددوا فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية – قال – فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كُملت من

(١) مفاتيح الغيب - الرازى - ٥/٢٣ - ٦ باختصار وتصرف .

المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقمة[١] في ذراع الدابة أو كالشامة[٢] في جنب البعير – ثم قال " إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة " فكبروا ثم قال: " إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة " فكبروا ثم قال: " إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة " فكبروا. قال: لا أدري قال الثلثين أم لا " قال هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن الحسن عن عمران بن حصين. وفيه: فيئس القوم حتي ما أبدوا بضاحكة، فلما رأي رسول الله ﷺ الذي بأصحابه قال: " اعملوا وأبشروا فو الذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شئ إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم وبني إبليس " قال: فَسُرّى عن القوم بعض الذي يجدون فقال: " اعملوا وأبشروا فو الذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة "[٣] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسو الله ﷺ : يقول الله تعالي: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك قال: يقول أخرج بعث النار، قال : وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال: فذاك حين

---

(١) الرقمة : الرقم : الكتابة والختم، والمرقوم من الدواب : الذى فى قوائمه خطوط كيّات ورقمتا الحمار والفرس : الأثران بباطن أعضادهما والرقمة : الهنَّة الناتئة فى ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان فى ذراعيها، وقيل : الرقمتان اللتان فى باطن ذراعى الفرس لا تنبتان الشعر .
- لسان العرب - محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصار الرويفعى الإفريقي (المتوفى ٧١١ هـ) ٢٤٩/١٢ باختصار دار صادر - بيروت - الطبعة الثالثة - ١٤١٤هـ.

(٢) الشامة : علامة مخالفة لسائر اللون، والشامة تخالف لون الفرس، والأثر الأسود في البدن وفي الأرض، والجمع شام، وشام يشيم إذا ظهرت بجلدته الرقمة السوداء - لسان العرب لابن منظور - ١٢/ ٣٢٩ باختصار.

(٣) سنن الترمذى - وهو الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل ومعه الشمائل المحمدية والخصائص المصطفوية - شفاء الغلل في شرح كتاب العلل لأبى عيسي محمد بن عيسي بن سورة - المتوفى ٢٧٩ هـ - كتاب التفسير - باب ومن سورة الحج ١١٣/٥ - ١١٥- حديث رقم ٣١٧٩ ، ٣١٨٠ - طبعة حقق أصولها المرحومان : أحمد شاكر، وفؤاد عبدالباقي، وأكملها عبدالقادر عرفان العشا حسونة - مراجعة وضبط وتصحيح/ صدقي محمد جميل العطار- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان - ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وتري الناس سكاري وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " .

فاشتد ذلك عليهم فقالوا يا رسول الله، أيُّنا ذلك الرجل ؟ قال: " أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل " ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة " قال: فحمدنا الله وكبرنا ثم قال: " والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود – أو كالرقمة في ذراع الحمار "[1] .

انقطاع الصلة بين الناس وفرار بعضهم من بعض

للناس في الدنيا أحوال متعددة فإما أن يكونوا أقارب كالآباء والأمهات والأبناء والإخوة فيكن بينهم تعاطف بحكم صلة القرابة وتبادل المصالح ويدخل في ذلك الأصدقاء وغيرهم ممن تربطهم التعاملات المختلفة وقد تحدث بينهم المشاحنات المؤقتة وسرعان ما يعودوا لمعاملاتهم لما بينهم قرابة ورحم ولكن يوم القيامة تنقطع الصلة بين الناس جميعا وحتي بين أقرب الأقارب، الأب والأم والإبن والأخ والأخت والصديق وصديقه، مع وجود المحبة بين المتقين والعداوة بين الكافرين. قال تعالي: ﴿ الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾[2] إلا في الحسنات وجزاء الطاعات فلن يعط أحد أحداً من حسناته شئ ولو كان شديد القرابة وشديد الصداقة والمحبة .

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - كتاب الرقاق - باب قوله عز وجل (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) ٢٠١/١٣ – حديث ٦٥٣٠ .
- وصحيح مسلم بشرح الإمام أبي زكريا يحيي بن شرف النووى الدمشقي - كتاب الإيمان - باب قوله " يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين " - ٢٢١/٣ - ٢٢٣ - حديث رقم ٢٢٢ .
(٢) سورة الزخرف - الاية (٦٧) .

فحال الناس في ذلك اليوم كما ذكره سبحانه في قوله : ﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[1] .

[قال عكرمة : يلقي الرجل زوجته فيقول لها يا هذه أى بعل كنت لك ؟ فتقول نعم البعل كنت وتثني بخير ما استطاعت فيقول لها فإني أطلب اليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعليّ أنجو مما ترين فتقول له ما أيسر ما طلبت ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذي تخاف. قال وإن الرجل ليلقي أبنه فيتعلق به فيقول يا بني أىّ والد كنت لك ؟ فيثني بخير، فيقول له يا بني إني احتجت إلي مثقال ذرة من حسنتك لعلي أنجو بها مما ترى، فيقول ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً يقول الله تعالي :﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ قال قتادة الأحب فالأحب والأقرب فالأقرب من هول ذلك اليوم][2] .

[﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أى يشغله عن غيره وقيل : إنما يفر حذراً من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التبعات .

وقيل : لئلا يروا ما هو فيه من الشدة . وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً][3].

[عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً"[4] قلت يا رسول الله ! النساء والرجال جميعاً، ينظر بعضهم إلي بعض؟

---

(١) سورة عبسي - الآيات (٣٣ - ٣٧) .
(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير- ١٨٤/٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن- القرطبي - ١٩ / ١٦٨ .
٤- غـــــرلا : معناه غير مختونين جمع أغرل وهو الذى لم يختن وبقيت معه غرلته وهي الجلدة التي تقطع في الختان .
والحفاة : جمع حاف والمقصود أنهم يحشرون كما خلقوا لا شئ معهم ولا يفقد منهم شئ .

قال ﷺ : " يا عائشة ! الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلي بعض "[١] .

قال تعالي : ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾[٢] هذه الآية تقطع الأمل في الجميع ففي ذلك اليوم لا ينتظر الإنسان إلا نتيجة عمله ورحمة ومغفرة ربه .

[أى ليس له ناصر، والمعني أن الذي يتوقع منه النصرة إما القريب في الدين أو في النسب أو المعتق، وكل هؤلاء يسمون بالمولي، فلما لم تحصل النصرة منهم فبأن لا تحصل ممن سواهم أولي][٣] .

قال تعالي : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ ﴾[٤] .

[في هذه الآية سؤالان معروفان يحتاجان إلي جواب مبين للمقصود مزيل للإشكال. السؤال الأول : ما وجه نفي الإنسان بينهم مع أنها باقية كما دل عليه قوله تعالي:﴿ فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾؟[٥] .

ففي هذه الآية ثبوت الأنساب بينهم .

السؤال الثاني : أنه قال : ﴿ وَلَا يَتَسَاءلُونَ ﴾ مع أنه ذكر في آيات أخر أنهم في الآخرة يتساءلون كقوله : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾[٦] إلي غير ذلك من الآيات .

- صحيح مسلم بشرح الإمام النووى - ١٦٣/١٧ .

(١) المرجع السابق- كتاب الجنة وصفة نعيمها- باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة - حديث ٢٨٥٩ .

(٢) سورة الدخان - الآيات (٤٠ - ٤٢) .

(٣) مفاتيح الغيب - الرازي - ٢٢٢/٢٧ .

(٤) سورة المؤمنون - الآية (١٠١) .

(٥) سورة عبسي - الآيات (٣٣ – ٣٦) .

(٦) سورة الطور - الآية (٢٥). وسورة الصافات - الآية (٢٧) .

الجواب عن السؤال الأول : أن المراد بنفي الأنساب انقطاع آثارها، التي كانت مترتبة عليها في دار الدنيا، من التفاخر بالآباء، والنفع والعواطف والصلات، فكل ذلك ينقطع يوم القيامة، ويكون الإنسان لا يهمه إلا نفسه، وليس المراد نفي حقيقة الأنساب، من أصها بدليل قوله ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾[1] .

والجواب علي السؤال الثاني : من ثلاثة أوجـــه :

الأول : هو قول من قال أن نفي السؤال بعد النفخة الأولي وقيل الثانية وإثباته بعدهما معاً، وهذا الجواب فيما يظهر لا يخلو من نظر .

الثاني : أن نفي السؤال عند اشتغالهم بالصعق والمحاسبة، والجواز علي الصراط وإثباته فيما عدا ذلك .

الثالث : أن السؤال المنفي سؤال خاص وهو سؤال بعضهم العفو من بعض، فيما بينهم من الحقوق، لقنوطهم من الإعطاء ولو كان المسؤول أباً أو إبناً أو أماً أو زوجة][2] .

ففي هذا اليوم انقطعت الصلة وانقطع الرجاء والأمل فلا قرابة ولا رحم ولا انتظار لفضل إلا من الخالق سبحانه .

---

(١) سورة عبسي - الآيات (٣٤ ، ٣٥) .

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي (المتوفي ١٣٩٣ هـ) - ٣٥٦/٥ - ٣٥٧ باختصار- الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان – ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

المطلب الثالث

هيئــة إتيانهم إلي أرض المحشر للحساب وظهور نتائــج أعمالهم

قال تعالي : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾[1] .

هذا وصف لكيفية خروج الناس من القبور وإتيانهم علي هيئة الذل والمهانة والقهر بين يدي رب العالمين .

[و(النصب) الصنم المنصوب للعبادة، أو العلم المنصوب علي الطريق ليهتدي به السالك، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم، أو إسراع من ضلَّ عن الطريق إلي أعلامها. أو إسراع الجند إلي راية الأمير. خاشعة أبصارهم أى من الخزي والهوان. ترهقهم ذلة أى تغشاهم ذلة من هول ما حاق بهم. ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون أي بأنهم ملاقوه][2] .

وصور سبحانه هيئة خروجهم في موضع آخر فقال سبحانه: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[3] .

---

(١) سورة المعارج - الآيتان (٤٣ ، ٤٤) .

(٢) محاسن التأويل - محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمى (المتوفي : ١٣٣٢ هـ)- ٣٢١/٩ .
المحقق : محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

(٣) سورة القمر - الآيات (٦ -٨) .

فهم عند خروجهم من القبور يكونوا في حالة ذهول وحيرة وتفرق وانتشار مثل الجراد في انتشاره ذليلى الأبصار خافضى الرؤوس .

[أى يخرجون من قبورهم ذليلة أبصارهم من هول ما يرون، كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلي موقف الحساب إجابة للداعي – جراد قد انتشر في الآفاق. وجاء تشبيههم بالفراش في قوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾[1] .

وهم يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فزعين، لا يهتدون أين يتوجهون، لأن الفراش لا جهة لها تقصدها. ثم يكونون كالجراد المنتش إذا توجهوا للحشر فهما تشبيهان باعتبار وقتين .

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ أى مسرعين إلي الداعي لا يخالفون ولا يتأخرون، ويقولون هذا يوم شديد الهول سيئ المنقلب .

ونحو الآية قوله ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾[2] وفي هذا إيماء إلي أنه هين علي المؤمن لا عسر فيه ولا مشقة][3] .

[وإنما وصف جل ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر أجسامهم، والمراد به جميع أجسامهم، لأن أثر ذلة كل ذليل، وعزة كل عزيز، تتبين في ناظريه دون سائر جسده، فلذلك خص الأبصار بوصفها بالخشوع][4] .

فتأتي جميع المخلوقات إلي أرض المحشر انتظاراً للحساب .

---

(١) سورة القارعة - آية (٤) .
(٢) سورة المدثر - الآية (٩ ، ١٠) .
(٣) تفسير المراغي - أحمد بن مصطفي المراغي (المتوفي : ١٣٧١هـ) - ٨٠/٢٧ - مطبعة مصطفي البابي - مصر - الطبعة الأولي - ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .
(٤) جامع البيان عن تأويل آى القرآن - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبرى (المتوفي : ٣١٠هـ) - ٥٧٣/٢٢ .
- المحقق . أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

قال تعالي : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[١] .

وقال تعالي :﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[٢] .

وقال تعالي : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾[٣] .

وقال تعالي : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾[٤] .

[أى قرن كل صاحب عمل مع نظيره فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار][٥] وحينئذ يدعون للحساب قال تعالي : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[٦] .

وقوله تعالي : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[٧].

---

(١) سورة الكهف - الآية (٤٧) .
(٢) سورة الأنعام - الآية (٣٨) .
(٣) سورة التكوير - الآية (٥) .
(٤) سورة التكوير - الآية (٧) .
(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي (المتوفي : ١٣٧٦ هـ) - ص ٩١٢ - المحقق : عبدالرحمن بن معلا اللويحق - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولي ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .
(٦) سورة يس - الآيات (٥١ - ٥٣) .
(٧) سورة ق - الآيات (٤١ - ٤٤) .

استدعاء البشر جميعا لكتبهم التي سجلت عليهم أعمالهم :

قال تعالي : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

مهد يثير الرهبة في القلوب حيث تتجمع الأمم في انتظار الحساب ولا شك أن الكافرين لا أمل لهم في النجاة من هذا اليوم العصيب وقد حكمت عليهم الآيات السابقة بذلك حيث أوضحت أن: [يوم القيامة يخسر المذكبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل، بدخولهم جهنم، يظهر خسرانهم في ذلك اليوم، لصيرورتهم إلي النار .

ثم أبان الله تعالي أهوال يوم القيامة قائلا :

١- وتري كل أمة جاثية أى وتنظر أصحاب كل ملة ودين واحد جاثين علي الركب من شدة الخوف والرعب، فالناس لشدة الأمر يجثون بين يدي الله عند الحساب .

٢- كل أمة تدعي إلي كتابها أى كل أمة تدعي إلي كتابها المنزل علي رسلهم، أو إلي صحيفة أعمالها .

٣- اليوم تجزون ما كنتم تعملون أى في يوم القيامة يجزيكم الله بما عملتم في الدنيا من خير وشر، تجازون بها من غير زيادة ولا نقص .

٤- هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون أى هذه صحيفة الأعمال التي أمرنا الملائكة الحفظة بكتابتها، تشهد عليكم، وتذكر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله تعالي: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ

(١) سورة الجاثية - (٢٧-٢٩) .

مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ﴿الكهف/٤٩﴾ .

إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم وتثبتها وتحفظها عليكم][1] .

ظهـــور نتائـــج الأعمال :

إن انتظار نتائج الأعمال شئ يثير القلق والخوف والاضطراب في النفس والجسم لأن الإنسان لا يدري سيصيبه الثواب أو العقاب ويوم القيامة سيكون ذلك علي هيئة صحيفة لكل إنسان يتسلمها إما بيمينه فتكون حاملة لكل ما هو سبب للسرور والنجاة من عذاب الله والفوز ينعم الجنة، وإما بشماله من وراء ظهره حاملة السوء وكل ما ينذر بالعذاب الآليم كما قال سبحانه وتعالي: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2] .

فيأتي من أخذ كتابه بيمينه فرحاً مسروراً يود أن يقرأ الجميع كتابه لما فيه من نتيجة أعماله الصالحة، قال تعالي: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ ﴾[3] .

ويتمني العاصي أنه لم يعط كتابه ولم يطلع عليه أحد لأنه حينئذ سيكون سبب للخزي والفضيحة أمام الجميع وتظهر جميع معاصيه، قال تعالي: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ﴾[4] .

---

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج - د/ وهبة بن مصطفي الزحيلي - ٢٨٥/٢٥ - ٢٨٦ - دار الفكر المعاصر - دمشق - الطبعة الثانية - ١٤١٨ هـــ .
(٢) سورة التوبة - الآية (٣) .
(٣) سورة الحاقة - الآيتان - (١٩ ، ٢٠) .
(٤) سورة الحاقة - الآيتان (٢٥ ، ٢٦) .

المبحث الرابع

أحـوال المؤمنـين يـوم القيامــة

إن هول هذا اليوم العظيم تفزع منه القلوب وتذهل فيه الأبصار وتحار العقول ولكن المؤمنين لهم في ذلك اليوم أحوال طيبة تظهر علي وجوههم نابعة من الإيمان المتغلغل في قلوبهم ومنها :

المطلب الأول

بياض وجوههم وإشراقها

ما أسَّره الإنسان في نفسه يظهره الله علي وجهه ولسانه وطالماً أصلح ما بينه وبين الله تكفل سبحانه بإصلاح ما بينه وبين الناس وظهر ذلك في معاملاته مع الآخرين .

هذا في الدنيا أما يوم القيامة فقد قال تعالي: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[1] فالمؤمنون يشع النور من وجوههم والكافرين تظهر عاقبة أعمالهم وما أبطنوه في قلوبهم ويطغي السواد علي وجوههم نابعاً من قلوبهم .

قال تعالي: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2] .

تشملهم رحمة ربهم ورضوانه ويدخلهم الجنة خالدين فيها ﴿ جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا ﴾[3] .

---

(١) سورة آل عمران - الآية (١٠٦) .
(٢) سورة آل عمران - الآية (١٠٧) .
(٣) سورة النبأ - الآية (٣٦) .

تعلو وجوههم النضرة والكرامة والعزة كما قال تعالي: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾[1] وكما قال تعالي: ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾[2] فقد جنَّبهم الله في ذلك اليوم نظرة الذل والحسرة والإنسكار التي تصيب العصاة والمذنبين وألقي النور والسرور علي وجوههم وهو من فضله سبحانه عليهم في الدنيا والآخرة كما قال سحانه: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾[3] قال الإمام ابن جرير الطبري بعد ذكر الأقوال الكثيرة التي وردت في معني هذه الآية: [وأولي الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالي ذكره أخبرنا أن سيما هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في وجوههم من أثر السجود، ولم يخص ذلك علي وقت دون وقت، وإذ كان ذلك كذلك، فذلك علي كل الأوقات، فكان سيماهم الذي كانوا يعرفون به في الدنيا أثر الإسلام، وذلك خشوعه وهديه وزهده وسمته، وآثار أداء فرائضه وتطوعه، وفي الآخرة ما أخبر أنهم يعرفون به، وذلك الغرة في الوجه والتحجيل في ايدي والأرجل من أثر الوضوء، وبياض الوجه من أثر السجود][4] .

وتزداد هذه الوجوه المنيرة إشراقاً بالنظر إلي الرحمن سبحانه وتعالي وتفرح وتستبشر بالنعيم الدائم الذي ينتظرها، قال تعالي: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾[5] .

---

[1]- سورة المطففين - الآية (٢٤) .
[2]- سورة الإنسان - الآية (١١) .
[3]- سورة الفتح - الآية (٢٩) .
[4]- جامع البيان عن تأويل آى القرآن - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبرى (المتوفي : ٣١٠هـ) - ٢٦٥/٢٢ - المحقق أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولي ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م .
[5]- سورة عبسي - الآيتان (٣٨ ، ٣٩) .

[مسفرة مضيئة متهللة، من أسفر الصبح إذا أضاء، وعن ابن عباس من قيام الليل لما روي " من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار"[١]، وعن الضحاك : من آثار الوضوء، وقيل من طول ما أغبرت في سبيل الله، وعندى أنه بسبب الخلاص من علائق الدنيا والاتصال بعالم القدس ومنازل الرضوان والرحمة، ضاحكة، قال الكلبي: يعني بالفراغ من الحساب مستبشرة فرحة بما نالت من كرامة الله ورضاه][٢] .

وقال سبحانه أيضا في وصف حال المؤمنين في ذلك اليوم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[٣] .

وقال سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾[٤] .

ففي هذه الآية [وصف أهل الثواب بأمرين أحدهما : في ظاهرهم، وهو قوله: ﴿ نَّاعِمَةٌ ﴾ أى ذات بهجة وحسن أو متنعمة .

والثاني: في باطنهم وهو قوله تعالي: ﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ وفيه تأويلان **أحدهما:** أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم في العمل لله. لما فازوا بسببه بالعاقبة الحميدة كالرجل يعمل العمل فيجزي عليه بالجميل، ويظهر له منه عاقبة محمودة فيقول: ما

(١) سنن ابن ماجة - الحافظ أبى عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة - ٢٠٧ - ٢٧٥ هـ - ومعه تعليقات مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة للإمام البوصيرى المتوفى سنة ٨٤٠ هـ - إقامة الصلاة والسنة فيها - باب ما جاء في قيام الليل - من حديث جابر بن عبدالله - ٤٢٨/١ - حديث رقم ١٣٣٣ - انفرد به ابن ماجة - قال البوصيرى هذا حديث ضعيف، ذكر ابن الجوزى في الموضوعات من عدة طرق، وضعفها كلها، وقال هذا حديث باطل، لا يصح عن رسول الله ﷺ - حقق أصوله وخرج أحاديثه علي الكتب الستة ورقمه حسب المعجم المفهرس لبنان - الطبعة الأولي ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .
(٢) مفاتيح الغيب - الرازى - ٦٥/٣١ - ٦٦ .
(٣) سورة القيامة - الآيتان (٢٢، ٢٣) .
(٤) سورة الغاشية - الآيتان (٨ ، ٩) .

أحسن ما عملت، ولقد وفقت للصواب فيما صنعت فيثني علي عمل نفسه ويرضاه، والثاني: المراد لثواب سعيها في الدنيا راضية إذا شاهدوا ذلك الثواب، وهذا أولي إذ المراد أن الذي يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حدَّ الرضا حتي لا يريدوا أكثر منه](١) .

- عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنت عند رسول الله ﷺ وطلعت الشمس فقال: " يأتي الله قوم يوم القيامة نورهم كنور الشمس " فقال أبو بكر أنحن هم يا رسول الله ؟ قال: " لا ولكم خير كثير، ولكنهم الفقراء والمهاجرون الذين يحشرون من أقطار الأرض "(٢) .

- وعنه رضي الله عنه قال : وكنا عند رسول الله ﷺ يوماً آخر حين طلعت الشمس فقال رسول الله ﷺ : " سيأتى أناس من أمتى يوم القيامة نورهم كضوء الشمس " .

قلنا : من أولئك يا رسول الله ؟ فقال: فقراء المهاجرين الذين تتقي بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته في صدره يحشرون من أقطار الأرض "(٣) .

وحتي مع وجود هذه الصفات في فئة مخصوصة ممن عاصروا الرسول ﷺ إلا أنه لا مانع من وجودها في غيرهم من الأمم التي جاءت بعدهم فالخير في أمة محمد ﷺ وفيهم من النور والضياء والنضارة ما يميز وجوههم عن غيرهم في ذلك اليوم .

ذلك لأن الإيمان نفذ إلي قلوبهم وأحياها وحبب إليهم الطاعة وصبروا علي الفقر وهاجروا في سبيل الله وتركوا أوطانهم من أجله سبحانه فهنيئاً لهم السعادة والنور الذى يعلو وجوههم يوم القيامة ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب - الرازي - ١٥٢/٣١ - ١٥٣ - باختصار .

(٢) المسند - للإمام أحمد بن حنبل - مسند عبدالله بن عمرو بن العاص - ٤٨٥/٦ - حديث رقم ٧٠٧٢ .

(٣) المسند للإمام أحمد بن حنبل - ٢٤١/١٦٤ هـ - مسند عبدالله بن عمرو بن العاص - ٥٩١/٢ - حديث رقم ٦٦٦٢ .

(٤) سورة الحديد - الآية (٢١) .

المطلب الثالث

" مـراتب المؤمنين في القرب مـن الله سبحانه يوم القيامـة "

علي قدر ما يعمل الإنسان في الدنيا من أعمال صالحة وطاعات ومواظبة علي العبادات وإخلاص للخالق سبحانه وتعالي : تكون منزلته في الآخرة ونتيجة عمله ومكانته وقربه من الله سبحانه وتعالي وقد أوضحت السنة المطهرة ذلك .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفي حتي لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عينان "[1] .

جمع هذا الحديث الشريف سبعة أصناف من الناس نالوا القرب من الله سبحانه وتعالي في يوم عصيب تدنو فيه الشمس منهم ويلجمهم العرق ويحتاجون في ذلك الوقت إلي رحمته سبحانه وإلي ثواب أعمالهم الصالحة لعلها تنجيهم من هول ذلك الموقف وهؤلاء السبعة هم من المكلفون عامة من الرجال والنساء جميعهم في أمان من العذاب ذلك اليوم وفي قرب من الله وفي رعايته وحفظه .

وقد قال سبحانه وتعالي في وصف المتحابين في الله: ﴿ الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - كتاب الأذان - باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد - ٣٦١/٢ - حديث رقم ٦٦٠ .
- وصحيح مسلم بشرح الإمام النووى - كتاب الزكاة - باب فضل إخفاء الصدقة - ١٠٢/٧ - ١٠٣ - حديث رقم ١٠٣١ .
(٢) سورة الزخرف - الآية (٦٧) .

[الأخلاء الأحباء يومئذ بعضهم لبعض عدو أى يتعادون يومئذ لانقطاع العلق لظهور ما كانوا يتخالون له سبباً للعذاب. إلا المتقين فإن خلتهم لما كانت في الله تبقي نافعة أبد الآباد][1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله تبارك وتعالي يقول يوم القيامة: أين المتحابون لجلالي ؟

اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي "[2] .

هذه هي المحبة في الله بين من جمعتهما الأخلاق الصالحة والالتزام بأوامر الله والتناصح وكف الأذي دون المنافع الدنيوية الزائلة .

وهم علي هذه الهيئة يوم القيامة يتمني الجميع أن يكونوا في مكانتهم عند ربهم كما ورد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " قال الله عز وجل:المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء"[3].

ومن الفئات ذات المكانة العالية يوم القيامة الذين يوفون بعهودهم ويصدقون في أقوالهم ويعدلون في أحكامهم وفي معاملاتهم وفيما ولاَّهم الله عليه، وقدروي عن عبدالله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " إن المقسطين[4]

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل - ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفي : ٦٨٥ هـ) - ٩٥/٥ - المحقق : محمد عبدالرحمن المرعشلي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الأولي - ١٤١٨ هـ .

٠٢)الموطأ - للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه - كتاب الشعر - باب ما جاء في المتحابين في الله - ص ٨٢٦ - دار الجيل بيروت - دار الآفاق الجديدة المغرب - الطبعة الثانية - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .

- وسنن الدارمي - للإمام الكبير عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبدالصمد التميمي السمرقندى الدارمي المتوفي سنة ٢٥٥ - كتاب الرقائق - باب في المتحابين في الله - ٣١٢/٢ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت .

(٣) سنن الترمذى - كتاب الزهد - باب ما جاء في الحب في الله - ١٧٤/٤ - حديث رقم ٢٣٩٧ .

(٤) المقسطون : هم العادلون وقد فسره في آخر الحديث، والإقساط والقسط بكسر القاف العدل، يقال : أقسط إقساطاً فهو مقسط إذا عدل . - صحيح مسلم بشرح النووى - ١٦٦/١٢ .

عند الله علي منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولَّوا "[١] .

فياله من مقام عظيم ومكانة عالية في ذلك اليوم العصيب حين يدعون ويجلسون بين يدي الرحمن تعلو وجوههم النضرة والسرور والضياء والرضا بهذا التكريم من رب العالمين .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : " ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً – أو سبعمائة ألف شك في أحدهما – متماسكين آخذ بعضهم ببعض حتي يدخل أولهم وآخرهم الجنة ووجوههم علي ضوء القمر ليلة البدر"[٢] وجاء بيان الصفات التي تحلوا بها حتي يستحقوا هذه المكانة العالية في قوله (كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلي ربهم يتوكلون)[٣].

فهم في منزلة كريمة لن يضيع الله ثواب أعمالهم وسيجزيهم خير الجزاء .

---

(١) المرجع السابق - كتاب الإمارة - باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث علي الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم - ١٦٦/١٢ - حديث رقم ١٨٢٧ .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب - ٢٢٣/١٣ - حديث رقم ٦٥٤٣ .

(٣) روى عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: " عرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر مع العشرة والنبي يمر معه الخمسة والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي ؟ قال: لا، ولكن انظر إلي الأفق فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدّامهم لا حساب عليهم، ولا عذاب، قلت: ولمَ ؟ قال: كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلي ربهم يتوكلون"، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: " اللهم اجعله منهم " ثم قام إليه رجل آخر فقالم: ادع الله أن يجعلني منهم قال: " سبقك بها عكاشة " .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب - ١٣ /٢٢٢ - ٢٢٣ - حديث رقم ٦٥٤١ .

المطلب الثالث

المؤمنون يوم القيامــة

يحيطهم النـور بـين أيديهم وبأيمانهم

قال تعالي : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1] .

[أى لهم الأجر الكريم حين تري المؤمنين والمؤمنات يسعي بين أيديهم ما يكون السبب في نجاتهم وهدايتهم إلي سبيل الجنة من العلوم التي كملوا بها أنفسهم في الدنيا كالاعتقاد بالتوحيد وخلع الأنداد والأوثان، والأعمال الصالحة التي زكُّوا بها أنفسهم، وبها أخبتوا لربهم وأنابوا إليه مخلصين له الدين وبأيمانهم تكون كتبهم كما جاء في آية أخرى:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾[2] ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي وتقول لهم الملائكة: أبشروا بجنات تجري من تحتها الأنهار جزاءً وفاقاً لما قدمتم من صالح الأعمال، وجاهدتم به أنفسكم في ترك الشرك والآثام، وكنتم تذكرون الله بالليل والناس نيام، فطوبي لكم وهنيئاً بما عملتم][3] .

وهم مع هذا التكريم والوعد العظيم بأن لهم الجنة يخشون عقابه سبحانه ويطمعون في غفرانه لذنوبهم وعفوه عنهم لما يرونه من أهوال في ذلك اليوم العصيب .

---

(١) سورة الحديد - الآية (١٢) .
(٢) سورة الانشقاق - الآيات (٧-٩) .
(٣) تفسير المراغي - أحمد بن مصطفي المراغي - (المتوفي : ١٣٧١ هـ) – ١٦٩/٢٧ - الناشر - مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي - مصر - الطبعة الأولي: ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

قال تعالي: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

[أى نورهم يسعي بين أيديهم حين يمشون وبأيمانهم حين الحساب، لأنهم يؤتون الكتاب بأيمانهم وفيه نور وخير لهم . ثم بين ما يطلبونه من ربهم فقال: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ﴾ أي يسألون ربهم أن يبقي لهم نورهم فلا يطفئه حتي يجوزوا الصراط، ويطلبون أيضاً منه أن يستر عليهم ذنوبهم، ولا يفضحهم بعقوبتهم عليها حين الحساب.

ثم ذكروا ما يطمعهم في إجابة الدعاء فقالوا :

﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى إنك علي إتمام نورنا، وغفران ذنوبنا، وكل ا نرجو منك ونطمع قدير يا ربنا، فاللهم أجب دعاءنا، ولا تخيب رجاءنا][2] .

يا لها من هيئة رائعة وصورة مبدعة لمن جاءوا في ذلك الموقف العصيب يحيطهم النور من كل مكان وذلك دليل الكرامة والمكانة التي اختصهم بها ربهم سبحانه فهم يستحقون فعلا قوله سبحانه : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

(١) سورة التحريم - الآية (٨) .
(٢) تفسير المراغي - أحمد بن مصطفي المراغي - ١٦٥/٢٨ - باختصار .

المطلب الرابع

الشهداء يوم القيامة لهم نصيب من النور

لكل فئة ممن عملوا الصالحات مكانة يوم القيامة ونور علي قدر عملها ولكنه سبحانه اختص الشهداء وأفردهم بالذكر في قوله: ﴿ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾[1] .

[أى لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم يسعي بين أيديهم][2] .

عن مسروق قال: سألنا عبدالله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾، قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك. فقال: " أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلي تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا أى شئ نشتهي ؟! ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتي نقتل في سبيلك مرة أخري، فلما رأي أن ليس لهم حاجة تركوا "[3] .

فكل عمل كان خالصا لله وفي سبيل مرضاته سبحانه له أجره يوم القيامة ونوره الذي يحيط بالمؤمن ويميزه عن غيره ويرفع درجة في ذلك اليوم .

---

(١) سورة الحديد - الآية (١٩) .
(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ٣٦١/٧ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى - كتاب الإمارة - باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة. وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون - ٢٧/١٣ - ٢٩ - حديث رقم ١٨٨٧ .

عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:" من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة "[1] .

فهم قوم أثروا عبادة الله وطاعته ورضوانه وصبروا وجاهدوا أنفسهم وتحملوا مشقة الطاعة حين غفل غيرهم وانغسوا في ملذات المعاصي المؤقتة، وأيقنوا بوعد الله الحق حين جحد الآخرون فهنيئًا لهم الكرامة والمنزلة والنور الذي يحيطهم في ذلك اليوم .

(١) سنن الترمذي- كتاب فضائل الجهاد - باب ما جاء في فضل من شاب شيبة في سبيل الله - ٢٣٧/٣ - حديث رقم ١٦٤١ - قال أبو عيسي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

المبحث الخامس

هيئة الكافريــن في ذلك اليوم

وضع الله سبحانه علامات فارقة تميز العباد يوم القيامة فكما وضع للمؤمنين ما يميزهم ويبشرهم بالفلاح والفوز بالنعيم والنور الذي يحيطهم كذلك وضع للكافرين علامات تدل علي الخزي والخسران وسوء المنقلب في ذلك اليوم ومما يميز الكافرين في ذلك اليوم :

المطلب الأول

الذلَّة وســواد الوجــوه

قال تعالي: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] .

يا لها من هيئة منفرة التي يكون عليها هؤلاء من الذلة والمهانة وسواد الوجوه كأنها مظلمة بالمعاصي كظلمة الليل لا حامي ولا مانع لهم من عذاب الله وفوق كل ذلك الخلود في النار فبئس المصير .

والمقصود من الآية:[والذين كسبوا السيئات أى الشرك والمعاصي جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم أى واق يقيهم العذاب كأنما أغشيت أى ألبست وجوههم قطعاً أى أجزاء من الليل مظلماً لفرط سوادها وظلمتها .

وذلك لارتكابهم الهيئة المظلمة من الميول الطبيعية، والأعمال الردية، والقصد الإخبار بأبدع تشبيه عن سواد وجوههم][2] .

---

(١) سورة يونس - الآية (٢٧) .

(٢) محاسن التأويل - محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفي : ١٣٣٢ هـ) - ٢٠/٦ - المحقق: محمد باسل عيون السود - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولي ١٤١٨ هـ .

فالمعاصي أورثتهم الذلة والانكسار والخوف والقلق وصبغت وجوههم بالسواد المظلم كظلمة الليل الذي لا يهتدي فيه أحد إلي طريقه فينتهي به إلي الضلال وسوء المآل .

قال تعالي: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[1] .

والمعني: [ويوم القيامة تري الذين كذبوا علي الله أى بنسبة ما يستحيل عليه من الولد والشريك، وتجويز ما يمتنع عليه من رضاه بما هم عليه، وأمره لهم، وغير ذلك من إفكهم وجوههم مسودَّة أى لما ينالهم من الشدة التي تغير ألوانهم. فالسواد حقيقي. أو لما لحقهم من الكآبة، ويظهر عليهم من آثار الهيئات الظلمانية ورسوخ الرذائل النفسائية في ذواتهم. فالسواد مجاز بالاستعارة، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين أى عن الإيمان والهدي][2] .

إنه السواد الحقيق الذي طبع علي وجوههم وخالط قلوبهم وغطاها من كثرة المعاصي وأصبح مصيرهم جهنم وبئس المهاد .

وقد بين القرآن الكريم الفرق بينهم وبين بياض وجوه المؤمنين في ذلك اليوم فقال تعالي: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[3] .

[يخبر تعالي عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾

(١) سورة الزمر- الآية (٦٠) .
(٢) محاسن التأويل - القاسمي - ٢٩٤/٨ .
(٣) سورة آل عمران - الآية (١٠٦) .

وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره علي وجوههم كما قال تعالي : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ ﴿الإنسان /١١﴾ .

نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ فيقال لهم علي وجه التوبيخ والتقريع ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أى كيف آثرتم الكفر والضلال علي الإيمان والهدي؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي ؟ ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فليس يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا الخزي والفضيحة والعار][1] .

ومن آثار الظلمة والشقاء علي وجوههم يظهر اليأس وانعدام السرور والرهبة من المصير المنتظر ويعبر القرآن عن ذلك الموقف بقوله سبحانه:﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾[2] .

[والمعني أنها عابسة كالحة قد أظلمت ألوانها وعدمت آثار السرور والنعمة منها، لما أدركها من الشقاء واليأس من رحمة الله، ولما سوَّدها الله حين ميز الله أهل الجنة والنار، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها قد أيقنت أن العذاب نازل، وهو قوله: ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ والظن ههنا بمعني اليقين، وأما الفاقرة، فقال أبو

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدى - ص ١٤٢ .
(٢) سورة القيامة - الآيتان (٢٤ ، ٢٥) .

عبيدة : الفاقرة الداهية، قال المبرد: الفاقرة داهية تكسر الظهر، وأصلها من الفقرة والفقارة كأن الفاقرة داهية تكسر فقار الظهر][1] .

ولمزيد من التنكيل بهم وإظهار قبحهم وازدراء هيئتهم في ذلك اليوم قال سبحانه في وصفهم : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾[2] .

[أى غبار وكدورة لما تراه مما أعده الله لها من العذاب، ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ أى يغشاها ويعلوها سواد وكسوف، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه قال ابن عباس: ذلة وشدة وعنه أنه قال: قترة سواد الوجه .

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ يعني أصحاب الوجوه وأهل هذه الحالة ﴿ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ جمع كافر وفاجر أى الجامعون بين الكفر بالله والفجور، ولذلك جمع إلي سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور إلي الكفر، يقال فجر أى فسق، وفجر أى كذب، وأصله الميل، والفاجر المائل عن الحق][3] .

اجتمع عليهم في ذلك اليوم ظلمات كثيرة من الخزى والندم والعار والخسران وسواد الوجوه وترقب المصير المحزن لا محالة .

(١) التفسير الكبير- أو مفاتيح الغيب - للإمام الرازى - ٢١٤/٣٠ – ٢١٥ باختصار .
(٢) سورة عبسي - الآيات (٤٠ - ٤٢) .
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن - أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفي: ١٣٠٧ هـ) - ٨٩/١٥ - ٩٠ - قدم له وراجعه : خالد العلم عبدالله بن إبراهيم الأنصاي - المكتبة العصرية للطباعة والنشر - صيدا - بيروت - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

المطلب الثاني

الخزي وتنكيس الرؤوس

وهو وصف آخر لهيئة الكافرين في ذلك اليوم فهم بالإضافة إلي سواد الوجوه وما يعلوها من الحزن لسوء المنقلب يطغي عليها الخزي وخفض الرؤوس والشعور بالقلة والحقارة، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[1] .

[أردف ذكر إنكارهم البعث بتصوير حال المنكرين أثر البعث وذلك عند حشرهم إلي الحساب، وجئ في تصوير حالهم بطريقة حذف جواب لو حذفاً يرادفه أن تذهب نفس السامع كل مذهب من تصوير فظاعة حالهم وهول موقفهم بين يدي ربهم، وبتوجيه الخطاب إلي غير معين لإفادة تناهي حالهم في الظهور حتي لا يختص به مخاطب] .

والمعني : لو تري أيها الرائي لرأيت أمراً عظيماً .

والمجرمون هم الذين قالوا ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ﴿السجدة :١٠ ﴾، فهو إظهار في مقام الإضمار لقصد التسجيل عليهم بأنهم في قولهم ذلك مجرمون، أى آتون بجرم وهو جرم تكذيب الرسول ﷺ وتعطيل الدليل .

والناكس : الذي يجعل أعلي شئ إلي أسفل، يقال : نكس رأسه، إذا طأطأه لأنه كمن جعل أعلي الشئ إلي أسفل .

ونكس الرؤوس علامة الذل والندامة، وذلك مما يلاقون من التقريع والإهانة .

(١) سورة السجدة - الآية (١٢) .

والعندية عندية السلطة، أى وهم في حكم ربهم لا يستطيعون محيداً عنه، فشبه ذلك بالكون في مكان مختص بربهم في أنهم لا يفلتون منه .

وجملة ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ إلي آخرها مقول قول محذوف دلَّ عليه السياق هو في موضع الحال، أى ناكسوا رءوسهم يقولون أو قائلين: أبصرنا وسمعنا، وهم يقولون ذلك ندامة وإقراراً بأن توعدهم القرآن به حق .

وحذف مفعول أبصرنا ومفعول سمعنا لدلالة المقام، أى أبصرنا من الدلائل المبصرة ما يصدق ما أخبرنا به – فقد رأوا البعث من القبور ورأوا ما يعامل به المكذبون –، وسمعنا من أقوال الملائكة ما فيه تصديق الوعيد الذي توعدنا به، أى: فعلمنا أن ما دعانا إليه الرسول ﷺ هو الحق الذي به النجاة من العذاب فأرجعنا إلي الدنيا نعمل صالحاً كما قالوا في موطن آخر ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ ﴿إبراهيم/٤٤﴾ .

وقوله ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ تعليل لتحقيق الوعد بالعمل الصالح بأنهم صاروا موقنين بحقية ما يدعوهم الرسول ﷺ إليه فكانت إن مغنية غناء فاء التفريع المفيدة للتعليل، أى ما يمنعنا من تحقيق ما وعدنا به شك ولا تكذيب، إنَّا أيقَّنا أن ما دعينا إليه حق. فاسم الفاعل في قوله ﴿ مُوقِنُونَ ﴾ واقع زمان الحال كما هو أصله][1] .

طلبوا من الله سبحانه الرجوع للدنيا لعمل الصالحات بعدما أيقنوا بأن ما كذبوا به في الدنيا الحق ولكن هيهات فقد أخبر سبحانه بأنهم لوردوا لعادوا لما كانوا عليه

(١) التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفي : ١٣٩٣ هـ) - ٢٢١/٢١ - ٢٢٢ - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٤ م .

من التكذيب فهي محاولة يائسة منهم للهروب من العذاب الذي ينتظرهم، قال تعالي: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[1] .

وقال سبحانه: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[2] .

[أى حتي إذا احتضر وشاهد أمارات العذاب، وعاين وحشة هيئات السيئات، تمني الرجوع، وأظهر الندامة، ونذر العمل الصالح في الإيمان الذي ترك. وقوله تعالي: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ يعني قوله ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ ﴿ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ أى لا يجاب إليها ولا تسمع منه، يعني أنه لم يحصل إلا علي الحسرة والندامة، والتلفظ بألفاظ التحسُّر والندم، والدعوة دون المنفعة والفائدة والإجابة. والآية نظيرها قوله تعالي: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿المنافقون/١٠﴾، ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى حائل يحول بينهم وبين الرجعة، يلبثون فيه إلي يوم القيامة][3] .

[وهو إقناط كلي عن الرجوع إلي الدنيا لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلي الدنيا وإنما الرجوع فيه إلي حياة تكون في الآخرة][4] .

---

(١) سورة الأنعام - الآية (٢٨) .
(٢) سورة المؤمنون - الآيتان (٩٩ ، ١٠٠) .
(٣) محاسن التأويل - القاسمى - ٣٠٢/٧ .
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل - البيضاوى - ٩٥/٤ .

[**قال قتادة :** والله ما تمني أن يرجع إلي أهل ولا إلي عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات ولكن تمني أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرءاً عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأي العذاب إلي النار][1] .

فأى خزي وأى صغار هذا الذي ملأ نفوسهم وطغي علي أعينهم فجعلهم خافضى رءوسهم مديمي النظر إلي أسفل خجلاً من التقصير في الدنيا كل ما يتمنوه هو الرجوع ولو لفترة قصيرة لتدارك ما قصَّروا فيه من الطاعات ولكن هيهات أن يعودوا بعد أن انقضي الأجل وفي ذلك عبرة وعظة لمن يتدبر أن الأمر فيه سعة طالما وجدت الحياة وهي موطن العمل ووقته، لكن إذا كان يوم الحساب فلا رجوع .

(١) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ٢٩٨/٥ .

المطلب الثالث

ضلال الطريق والحشر علي الوجوه

هذا استكمال لوصف هيئة الضالين المكذبين الذين يأتون يوم القيامة يسيرون علي ضلالة غير مهتدين للطريق لا يبصرون كما لم يبصروا الحق في الدنيا وأغمضوا أعينهم عنه بإرادتهم فاليوم لا إرادة ولا اختيار ولا هداية بل لا ينطقون ولا يسمعون زيادة في تقبيح مظهرهم وبيان لسوء المنقلب .

قال تعالي : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

[ومعني مكباً أنه يعثر كل ساعة ويخر علي وجهه لوعورة طريقه واختلاف أجزائه، ولذلك قابله بقوله : ﴿ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ قائما سالماً من العثار. ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مستوي الأجزاء والجهة، والمراد تمثيل المشرك والموحد بالسالكين والدينين بالمسلكين، ولعل الاكتفاء بما في الكب من الدلالة علي حال المسلك للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يسمي طريقاً، كمشي المتعسف في طريق متعاد غير مستو. وقيل المراد : بالمكب الأعمي فإنه يتعسف فينكب وبالسوي البصير، وقيل من يمشي مكباً هو الذي يحشر علي وجهه إلي النار ومن يمشي سوياً الذي يحشر علي قدميه إلي الجنة][2] .

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾[3] .

---

(١) سورة الملك - الآية (٢٢) .
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل - البيضاوى - ٥ /٢٣١ .
(٣) سورة الإسراء - الآية (٩٧) .

[﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ فيه **وجهان** :

أحدهما : أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلي جهنم، من قول العرب : قدم القوم علي وجوههم إذا أسرعوا .

الثاني : أنهم يسحبون يوم القيامة علي وجوههم إلي جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه .

وهذا هو الصحيح لحديث أنس أن رجلاً قال : يا نبي الله يحشر الكافر علي وجهه يوم القيامة؟ قال " أليس الذي أمشاه علي الرجلين في الدنيا قادراً علي أن يمشيه علي وجهه يوم القيامة "[1] قال قتادة: بلي وعزة ربنا[2] ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ قال ابن عباس والحسن: أى عمي عما يسرهم، بكم عن التكلم بحجة، صم عما ينفعهم، وقيل: إنهم يحشرون علي الصفة التي وصفهم الله بها، ليكون ذلك زيادة في عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم في النار فأبصروا، لقوله تعالي: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ ﴿الكهف/٥٣﴾ وتكلموا، لقوله تعالي: ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ ﴿الفرقان/١٣﴾ وسمعوا لقوله تعالي: ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ ﴿الفرقان/١٢﴾ .

وقيل: عموا حين دخلوا النار لشدة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ﴿المؤمنون/١٠٨﴾ .

وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئاً .

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب قوله : { الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا } - ٤٣٧/٩ - حديث رقم ٤٧٦٠ ، وكتاب الرقاق - باب الحشر ١٨٧/١٣ حديث رقم ٦٥٢٣ .
- وصحيح مسلم بشرح النووى - كتاب صفة القيامة والجنة والنار- باب يحشر الكافر علي وجهه - ١٢٤/١٧ – حديث رقم ٢٨٠٦ .
(٢) هو موصول بالسند المذكور - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ١٩٤/١٣ .

[﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى مستقرهم ومقاهم][1] .

[﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم، ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ توقداً بأن نبدل جلودهم ولحومهم فتعود ملتهبة مستعرة، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الافناء جزاهم الله بأن لا يزالوا علي الإعادة والإفناء وإليه أشار بقوله:﴿ ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ﴿الإسراء/٩٨﴾ لأن الإشارة إلي ما تقدم من عذابهم][2] .

قال ابن حجر: (والحكمة في حشر الكافر علي وجهه أنه عوقب علي عدم السجود لله في الدنيا بأن يسحب علي وجهه في القيامة إظهاراً لهوانه بحيث صار وجهه مكان يده ورجله في التوقي عن المؤذيات)[3] .

وقال سبحانه وتعالي:﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[4] .

[والذي يظهر أنهم لما اعترضوا في حديث القرآن وإنزاله مفرقاً كان في ضمن كلامهم أنهم ذووا رشد وخير، وأنهم علي طريق مستقيم ولذلك اعترضوا فأخبر تعالي بحالهم وما يؤول إليه أمرهم في الآخرة بكونهم شر مكاناً وأضل سبيلاً، والظاهر أنه يحشر الكافر علي وجهه بأن يسحب علي وجهه. وهذا قول الجمهور.

وقيل: هو مجاز للذلة المفرطة والهوان والخزي .

وقيل: هو من قول العرب مرَّفلان علي وجهه إذا لم يدْرِ أين ذهب .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن - القرطبى - ٢٧٥/١٠ – ٢٧٦ - باختصار .
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل - البيضاوى – ٢٦٨/٣ .
(٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - ١٩٤/١٣ .
(٤) سورة الفرقان - الآية (٣٤) .

ويقال: مضي علي وجهه إذا أسرع متوجهاً لقصده، وقوله ﴿ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ أى مستقراً، ويحتمل أن يراد بالمكان المكانة والشرف لا المستقر][1] .

فيالها من هيئة مخزية يحشرون عليها في ذلك اليوم ويا له من عذاب أليم ينتظرهم .

(١) البحر المحيط في التفسير- أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفي : ٧٤٥ هـ) - ١٠٤/٨ - ١٠٥ باختصار- المحقق: صدقي محمد جميل - دار الفكر - بيروت الطبعة ١٤٢٠ هـ .

المبحث السادس

الشفاعـة العظمـى

الشفاعة في اللغة [شفع: الشفع: خلاف الوتر، وهو الزوج .

تقول : كان وتراً فشفعته شفعاً. وشفع الوتر من العدد شفعاً: صيَّره زوجاً .

وشفع لي يشفع شفاعة وتشفَّع: طلب. والشفيع: الشافع. والشفاعة: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره .

وشفع إليه: في معني طلب إليه. والشافع: الطالب لغيره يتشفع به إلي المطلوب. يقال: تشفعت بفلان إلي فلان فشفّعني فيه .

وقد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والأخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم][1] .

من المواقف التي يترقبها الخلائق جميعا في ذلك اليوم موقف الشفاعة للخلاص من رهبة الوقوف للحساب وانتظار المصير إما إلي الجنة وإما إلي النار .

وقد اختص الله سبحانه وتعالي نبيه محمد ﷺ بالشفاعة العظمي، فقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[2] .

[يقول تعالي ذكره لنبيه محمد ﷺ ومن الليل فاسهر بعد نومة يا محمد بالقرآن، نافلة لك خالصة دون أمتك. والتهجد: التيقظ والسهر بعد نومة من الليل. وأما الهجود نفسه: فالنوم .

وأما قوله ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فإنه يقول: نفلا لك عن فرائضك التي فرضتها عليك .

---

(١) لسان العرب - لابن منظور الأنصارى الرويفعى الإفريقى - ١٨٣/٨ - ١٨٤ - باختصار .
(٢) سورة الإسراء - الآية (٧٩) .

واختلف في المعني الذي من أجله خُصَّ بذلك رسول الله ﷺ، مع كون صلاة كل مصلٍّ بعد هجوده، إذا كان قبل هجوده قد كان أدي فرائضه نافلة نفلاً إذ كانت غير واجبة عليه .

فقال بعضهم: معني خصوصه بذلك: هو أنها كانت فريضة عليه، وهي لغيره تطوّع، وقيل له: أقمها نافلة لك: أى فضلاً لك من الفرائض التي فرضتها عليك عما فرضت علي غيرك .

وقوله : (عسي أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) وعسي من الله واجبة، لعلم المؤمنين أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء علي أعمالهم والعوض علي طاعتهم إياه ليس من صفته الغرور، ولا شك أنه قد أطمع من قال ذلك له في نفعه، إذا هو تعاهده ولزمه، فإن لزم المقول له ذلك وتعاهده ثم لم ينفعه، ولا سبب يحول بينه وبين نفعه إياه مع الإطماع الذي تقدم منه لصاحبه علي تعاهده إياه ولزومه، فإنه لصاحبه غارّ بما كان من إخلافه إياه فيما كان أطمعه فيه بقوله الذي قال له . وإذ كان ذلك كذلك، وكان غير جائز أن يكون جلّ ثناؤه من صفته الغرور لعباده صحَّ ووجب أن كل ما أطمعهم فيه من طمع علي طاعته، أو علي فعل من الأفعال، أو أمر أو نهي أمرهم به، أو نهاهم عنه، فإنه موفٍ لهم به، وإنهم منه كالعدة التي لا يخلف الوفاء بها، قالوا: عسي ولعل من الله واجبة .

وتأويل الكلام : أقم الصلاة المفروضة يا محمد في هذه الأوقات التي أمرتك بإقامتها فيها، ومن الليل فتهجد فرضاً فرضته عليك، لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاماً تقوم فيه محموداً تحمده، وتغبط فيه .

ثم اختلف أهل التأويل في معني ذلك المقام المحمود .

فقال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذي هو يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم][1] .

إنها المنزلة التي ميز الله سبحانه بها نبيه ﷺ علي سائر الأنبياء وكانت من ضمن عدة خصائص ميزته علي سائر الأنبياء كما جاءت السنة النبوية مبينة لذلك.

فقد روي عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلي قومه خاصة وبعثت إلي الناس عامة "[2] .

وعن ابن عمر رضي اله عنهما قال: " إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً[3] كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع حتي تنتهي الشفاعة إلي النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود "[4] .

إذا هي الشفاعة العظمي التي يطلبها الأمم من رسلهم فلا يقوموا بها ويكون ﷺ هو من يقوم بها لينقذهم من العذاب ومن انتظار الحساب .

---

(١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن - ابن جرير الطبرى ٥٢٣/١٧ - ٥٢٦ باختصار .
(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - كتاب التيمم - باب (١) - حديث رقم ٣٣٥، وصحيح مسلم بشرح النووى - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - حديث رقم ٥٢١ .
(٣) جثا : أى جماعة، وتروى هذه اللفظة جُثِّى بتشديد الياء: جمع جاث، وهو الذى يجلس علي ركبتيه، ويجمع الجميع: جُثاً، بالضم والكسر .
- النهاية في غريب الحديث والأثر - مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجذى ابن الأثير (المتوفى ٦٠٦ هـ) - ٢٣٩/١ - تحقيق / طاهر محمد الزاوي - محمود محمد الطناحى - المكتبة العلمية - بيروت - ١٩٩٣ هـ - ١٩٧٩ م .
(٤) فتح الباري بشرح بشرح صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب قوله (عسي أن يبعثك ربك مقاماً محمودا) - ٣١٦/٩ - حديث رقم ٤٧١٨ .

وقد جاءت الأحاديث في ذلك .

[عن أبي هريرة، قال: أُتى رسول الله ﷺ يوماً بلحمٍ. فرُفع إليه الذراع وكانت تعجبه. فنهس منها نهسة[1] فقال " أنا سيد الناس يوم القيامة. وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد. فيُسمِعُهُم الداعي وينفذُهُمُ البصر[2]. وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغمِّ والكرب ما لا يطيقون. وما لا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلي ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم. فيأتون آدم. فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر. خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلي ربك. ألا ترى إلي ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله. ولن يغضب بعده مثله. وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته. نفسي. نفسي. اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض. وسماك الله عبداً شكوراً. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله. وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها علي قومى. نفسي. نفسي. اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ . فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليه من أهل الأرض. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله. وذكر كذباته.

---

(١) نهس: النهس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان .
- النهاية في غريب الحديث والأثر - لابن الأثير - ١٣٦/٥ .

(٢) ينفذهم البصر: يقال نفذني بصره، إذا بلغني وجاوزنى وأنفذت القوم إذا خرقتهم، ومشيت في وسطهم، فإن جزتهم حتي تُخَلِّفهم قلت: نفذتهم، بلا ألف. وقيل: يقال فيها بالألف .
قيـــل: المراد به ينفذهم بصر الرحمن حتي يأتي عليهم كلهم .
وقيل: أراد ينفذهم بصر الناظر، لاستواء الصعيد .
- النهاية في غريب الحديث الأثر - لابن الأثير - ٩١/٥ .

نفسي. نفسي. اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى ﷺ فيقولون : يا موسى! أنت رسول الله. فضلك الله برسالاته وبتكليمه، علي الناس. اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا تري ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى ﷺ : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله. وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها. نفسي نفسي. اذهبوا إلى عيسي ﷺ . فيأتون عيسي فيقولون: يا عيسي! أنت رسول الله، وكلَّمت الناس في المهد، وكلمةُ منه ألقاها إلى مريم، وُروحُ منه. فاشفع لنا إلى ربك ألا تري إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسي ﷺ إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر له ذنباً. نفسي. نفسى. اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتونى فيقولون: يا محمد! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء. وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى. ثم يفتح الله علىَّ ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلى. ثم يقال: يا محمد! أرفع رأسك. سل تعطه. اشفع تشفع. فأرفع رأسى فأقول: يا رب! أمتى. أمتى. فيقال: يا محمد!

أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه، من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. والذى نفسى محمد بيده! إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهَجَر[1]. أو كما بين مكة وبُصرى[2]][3].

---

(١) هجر : اسم بلد معروف بالبحرين، وهو مذكر مصروف .
- النهاية فى غريب الحديث والأثر - لابن الأثير - ٢٤٦/٥ .

(٢) بُصرى : بضم الباء وهى مدينة معروفة بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل وهى مدينة حوران وبينها وبين مكة شهر .
- صحيح مسلم بشرح النووى - ٥٥/٣ .

٣- صحيح مسلم بشرح النووى - كتاب الإيمان - باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها - ٥٢/٣ - ٥٥ - حديث رقم ٣٢٧ .

وقد بين هذا الحديث أن الأمم جميعا تسأل رسلهم فى هذا الموقف العصيب أن يشفعوا لهم لينقذوهم من طول الموقف وانتظار الحساب، فيحيلهم كل نبي إلى نبى آخر حتى يصلوا إلى سيدنا محمد ﷺ ويطلبوا منه ذلك فلا يردهم ولكنه يلجأ إلى ربه ويطلب منه النجاة ويقول أمتى أمتى .

وقد ذكر العلماء أقوال في ذلك : [قال القاضى عياض : وجاء فى حديث أنس وحديث أبى هريرة ابتداء النبى ﷺ بعد سجوده وحمده والإذن له في الشفاعة بقوله " أمتى، أمتى " وقد جاء في حديث حذيفة بعد هذا في هذا الحديث نفسه قال : " فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولهم كالبرق " وساق الحديث. وبهذا يتصل الحديث، لأن هذه هي الشفاعة التى لجأ الناس إليه فيها وهى الإراحة من الموقف والفصل بين العباد، ثم بعد ذلك حلت الشفاعة في أمته ﷺ وفي المذنبين، وحلت الشفاعة للأنبياء والملائكة وغيرهم صلوات اله وسلامه عليهم كما جاء في الأحاديث الأُخر، وجاء في الأحاديث المتقدمة في الرؤية، وحشر الناس اتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المؤمنين من المنافقين، ثم حلول الشفاعة ووضع الصراط، فيحتمل أن الأمر باتباع الأمم ما كانت تعبد هو أول الفصل والإراحة من هول الموقف وهو أول المقام المحمود، وأن الشفاعة التى ذكر حلولها هى الشفاعة فى المذنبين على الصراط وهو ظاهر الأحاديث، وأنها لنبينا محمد ﷺ وغيره كما نص عليها في الأحاديث، ثم ذكر بعدها الشفاعة فيمن دخل النار، وبهذا تجتمع متون الحديث وتترتب معانيها إن شاء الله تعالى][1] .

- وفتح البارى بشرح صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب (ذرية من جملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) - ٣١١/٩ – ٣١٢ - حديث رقم ٤٧١٢ - واللفظ لمسلم .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى - ٤٦/٣ .

وقال القرطبى بعد أن ذكر حديث الشفاعة : [هذه الشفاعة العامة التى خص بها نبينا محمد صلى اله عليه وسلم من بين سائر الأنبياء هى المرادة بقوله عليه الصلاة والسلام " لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى "[1] .

وهذه الشفاعة العامة لأهل الموقف إنما هي ليعجل حسابهم ويراحوا من هول الموقف وهى الخاصة به ﷺ وقوله " أقول يا رب أمتى أمتى " اهتمام بأمر أمته وإظهار محبته فيهم وشفقته عليهم .

وقوله:" فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه ". يدل أنه شفع فيما طلب من تعجيل حساب أهل الموقف، فإنه لما أمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته، فقد شرع في حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم وكان طلب هذه الشفاعة من الناس بإلهام من الله تعالي لهم حتي يظهر في ذلك اليوم مقام نبيه ﷺ المحمود الذى وعده ولذلك قال كل نبي: لست لها لست لها حتي انتهي الأمر إلى محمد ﷺ فقال : " أنا لها "][2] .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى - ولفظه أن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " لكل نبي دعوة فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة " - كتاب التوحيد - باب في المشيئة والإرادة - ٤١٢/١٥ - حديث رقم ٧٤٧٤ .
- وكتاب الدعوات - باب لكل نبي دعوة مستجابة - ٣٧٣/١٢ - حديث رقم ٦٣٠٤ .
- وصحيح مسلم بشرح النووى - كتاب الإيمان - باب اختباء النبى ﷺ دعوة الشفاعة لأمته - ٥٩/٣ - حديث ٣٣٩- ولفظه عن أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ الكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته. وأنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة. فهى نائلة إن شاء الله، من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً" .

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة - أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى الخزرجى شمس الدين القرطبى (المتوفى : ٦٧١ هـ) ٥٩٩/١ -٦٠٠ تحقيق ودراسة: الدكتور الصادق بن محمد بن إبراهيم - الناشر : مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع - الرياض - الطبعة الأولي ١٤٢٥هـ .

فحديث الشفاعة إذا يدل علي أمور منها :

١- أن المطلوب الأول من الرسول ﷺ أن يشفع لجميع الخلائق عند ربهم سبحانه بتعجيل الحساب لإراحتهم من هول الموقف وانتظار المصير .

٢- أن الخلق جميعاً لجأوا إلى الأنبياء للشفاعة فاعتذر لهم كل نبي حتي وصل الأمر إلي محمد ﷺ فكان لها وسأل ربه الشفاعة للخلق حتي يبدأ الحساب، والفصل بين العباد ويرتاحوا من هول الموقف .

٣- بعد ذلك يظهر اهتمام النبي ﷺ بأمر أمته ومحبته لهم في قوله " أمتى أمتى " .

٤- قوله " فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه " يدل علي أنه شفع فيما طلبه منه جميع الخلائق من تعجيل الحساب لأهل الموقف جميعاً، لأن الأمر بإدخال من لا حساب عليه من أمته إلي الجنة دليل علي البدء في حساب من عليه حساب من أمته وغيرهم .

الخاتمـــة

الحمد لله أولا وآخراً علي أن وفقني في عرض هذا الموضوع الذي غفل الكثير من الناس عنه وهو الغاية الكبرى للإنسان والهدف الأسمي الذي هو نتيجة حياة الإنسان ومصيره الذي يتعرض له لا محالة فعليه أن يستعد له أيَّما استعداد لأنه من ترسَّم هذه المشاهد وعمل لأجل النجاة منها فقد فاز فوزاً عظيما لقوله تعالي: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1] .

وقد وقفت من خلال هذا البحث علي عدة نتائـــج منها :

١- علي الإنسان ألا يغفل عن هول هذا اليوم العظيم .

٢- أن يراقب الله في أفعاله وتصرفاته في هذه الحياة الدنيا لأنه محاسب علي كل صغيرة وكبيرة في هذه الحياة .

٣- ليعلم أن عليه رقيب وعتيد يسجل عليه كل ما صنعه من صغير وكبير .

وصل اللهم وسلم علي سيدنا محمد ﷺ الذي بين لنا ما سطره القرآن الكريم وما رواه لنا من سنته تجاه هذا اليوم العظيم .

وقد حاولت جهدي أن يخرج هذا البحث في أحسن صورة كي ينتفع به المسلمون فإن كنت وفقت فمن الله وحده وبفضله ومنته وإلا فحسبي أنى قد حاولت الخير وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلي الله وسلم وبارك علي سيدنا محمد ﷺ عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

(١) سورة آل عمران - الآية (١٨٥) .

قائمــة المصــادر والمراجــع

أولاً: القرآن الكريم جلَّ من أنزله

ثانياً: التفسـير

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن – محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي (المتوفي ١٣٩٣ هـ) – الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .
- البحر المحيط في التفسير – أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفي : ٧٤٥ هـ) – المحقق : صدقي محمد جميل – دار الفكر – بيروت – الطبعة ١٤٢٠ هـ .
- التحرير والتنوير– محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفي : ١٣٩٣ هـ) – الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤ م .
- التفسير الكبير – أو مفاتيح الغيب – للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري – الرازي الشافعي – ٥٤٤ – ٦٠٤ هـ – قدَّم له/ هاني الحاج – حققه وعلق عليه وخرَّج أحاديثه/ عماد زكي البارودي – المكتبة التوفيقية – القاهرة بدون بيان عن الطبعة .
- الجامع لأحكام القرآن – تفسير القرطبي – لأبى عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي – تقديم / هاني الحاج – حققه وخرَّج أحاديثه / عماد زكي البارودي، خيري سعيد – المكتبة التوفيقية – القاهرة – بدون بيان عن الطبعة .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى (المتوفى ٦٨٥ هـ) المحقق : محمد عبدالرحمن

المرعشلى – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ .

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج – د/ وهبة الزحيلي – دار الفكر المعاصر – دمشق – الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي – (المتوفى ١٣٧٦هـ) – المحقق : عبدالرحمن بن معلا اللويحق – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .
- تفسير القرآن العظيم – للإمام إسماعيل بن عمر بن ضوء بن درع القرشي البصروى ثم الدمشقي أبو الفداء عماد الدين ابن كثير – المولود ٧٠١ هـ – ١٣٠٢ م – المتوفى ٧٧٤ هـ – ١٣٧٣ م – حقق أصوله ووثق نصوصه وخرج أحاديثه وكتب مقدماته وراجعه / طه عبدالرءوف سعد – طبعة جديدة مضبوطة محققة معتني بإخراجها مقدم لها – أصح الطبعات وأكثرها شمولا – الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م – مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع – المنصورة .
- تفسير المراغى – أحمد بن مصطفى المراغى (المتوفى ١٣٧١ هـ) – الناشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابى الحلبي وأولاده – بمصر – الطبعة الأولى – ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م .
- جامع البيان عن تأويل آى القرآن – محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبرى (المتوفى ٣١٠هـ) – المحقق أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م .

- فتح البيان في مقاصد القرآن – أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسينى البخارى القنوجى (المتوفى : ١٣٠٧ هـ) – عنى بطبعه وقدم له وراجعه : خادم العلم عبدالله بن إبراهيم الأنصارى – المكتبة العصرية للطباعة والنشر – صيدا – بيروت – ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .
- محاسن التأويل – محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى ١٣٣٢ هـ) – المحقق : محمد باسل عيون السود – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

ثالثاً: علوم القرآن

- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى (المتوفى ٨١٧هـ) – طبعة وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامى – الطبعة الثانية – رجب ١٤٠٦ هـ – مارس ١٩٨٦ م .

رابعاً: الحـــديث

- المسند – للإمام أحمد بن حنبل – إشراف الدكتور سمير طه المجذوب، وعلي حسن الطويل، وسمير حسين غاوي – المكتب الإسلامي – بيروت – دمشق – عمان – الطبعة الأولى – ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣م .
- الموطأ – للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه – ويليه كتاب إسعاف المبطأ برجال الموطأ – الإمام جلال الدين عبدالرحمن السيوطى – طبعة جديدة مفهرسة – بمراجعة وإشراف لجنة من العلماء – دار الجيل – بيروت – دار الآفاق الجديدة – المغرب – الطبعة الثانية – ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م .

- النهاية في غريب الحديث والأثر – مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزرى ابن الأثير (المتوفى ٦٠٦ هـ) – المكتبة العلمية – بيروت – ١٩٩٣ هـ – ١٩٧٩ م – تحقيق / طاهر محمد الزاوي – محمود محمد الطناحى .
- سنن ابن ماجة – الحافظ أبى عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة – ٢٠٧ – ٢٧٥ هـ – ومعه تعليقات مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة للإمام البوصيرى المتوفى سنة ٨٤٠ هـ – حقق أصَوله وخرج أحاديثه علي الكتب الستة ورقمه حسب المعجم المفهرسوتحفة الأشراف الشيخ خليل مأمون شيحا – دار المعرفة – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م .
- سنن الترمذى – وهو الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل ومعه الشمائل المحمدية والخصائص المصطفوية – شفاء الغلل في شرح كتاب العلل لأبى عيسي محمد بن عيسي بن سورة – المتوفى ٢٧٩ هـ – طبعة حقق أصولها المرحومان : أحمد شاكر، وفؤاد عبدالباقي، وأكملها الشيخ عبدالقادر عرفان العشا حسونة – مراجعة وضبط وتصحيح/ صدقي محمد جميل العطار – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .
- سنن الدرامي – للإمام الكبير أبو محمد عبد الله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبدالصمد – التميمي السمرقندى الدرامى – المتوفى ٢٥٥ هـ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – بدون تاريخ .

- صحيح مسلم بشرح الإمام أبى زكريا يحيي بن شرف النووى الدمشقي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ – ضبط وتوثيق – صدقى محمد جميل العطار – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .
- صحيح مسلم بشرح الإمام أبى زكريا يحيي بن شرف النووى – طبعة مكتبة الصفا – الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري – للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلانى – ٧٧٣ – ٨٥٢ هـ – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م .
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى – لأحمد بن على بن حجر أبى الفضل العسقلانى – رتب كتبه وأبوابه محمد فؤاد عبد الباقى – طبعة دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩ هـ .

خامساً: اللغة والمعاجم :

- المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم – ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م – جمهورية مصر العربية .
- المفردات في غريب القرآن – أبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب ٥٠٢ هـ – تحقيق وضبط محمد خليل – عيتاني – دار المعرفة – بيروت – لبنان – الطبعة الأولي ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م .
- لسان العرب – محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصارى الرويفعى الإفريقي (المتوفى ٧١١ هـ) دار صادر – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ .

سادساً: التراجم والسير

- الإصابة فى تمييز الصحابة – أبى الفضل أحمد بن على بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلانى – المتوفى سنة ٨٥٢ هـ – تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود – دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .
- أسد الغابة في معرفة الصحابة – لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيبانى الجزرى عز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ – طبعة دار الفكر – بيروت – ١٤٠٩ هـ .
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي – المتوفي سنة ٧٤٨ هـ – تحقيق الدكتور بشار عواد معروف – طبعة دار الغرب الإسلامي – الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م .

سابعاً: كتب عامة

- التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة – أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى الخزرجى شمس الدين القرطبى (المتوفى ٦٧١هـ) – تحقيق ودراسة الدكتور/ الصادق بن محمد بن إبراهيم – مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ .